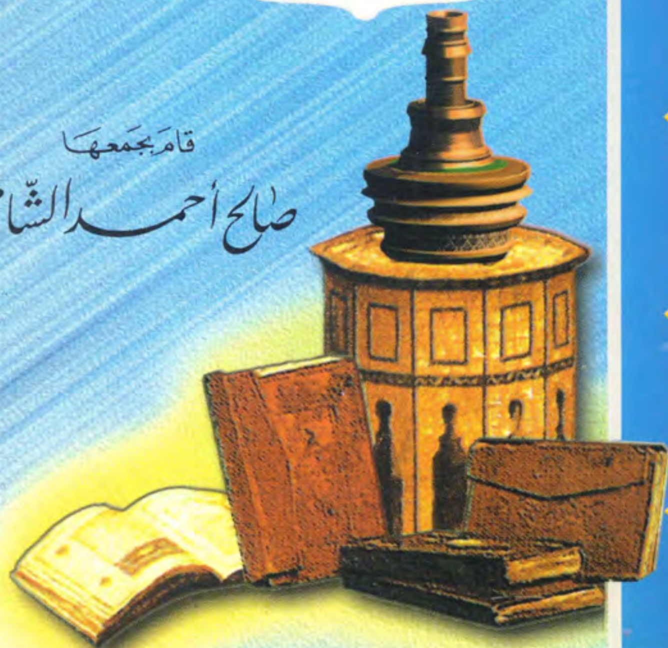
مَوَاعِظُ

الإمام الغزالي

(ت ٥٠٥ هـ)



قام بجمعها

صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

مواعظ

الإمام الغزالي


بسم الله الرحمن الرحيم

معالم في التربية والدعوة

مواعظ
الإمام الغزالي
(ت ٥٠٥ هـ)

قام بجمعها
صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف: ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف: ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف: ٤٦٥٦٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

يعد الإمام أبو حامد الغزالي شيخ المربين. وواحداً من أشهر من عمل في هذا الميدان علىٰ مرّ العصور، تطبيقاً وسلوكاً وتأليفاً.. فكان السابق في هذا المضمار، كما كان المتقدَّم في غيره من ميادين المعرفة..

فكان من المستحسن أن تأخذ أقواله ونصائحه وتوجيهاتها مكانها في هذه السلسلة «معالم في التربية والدعوة».

والإمام الغزالي له الكتب الكثيرة التي لها

الصدارة في موضوع «التربية والسلوك» يأتي علىٰ رأسها كتاب «إحياء علوم الدين» فهو أحد المراجع في هذا الباب، ومنها: «منهاج العابدين» و«بداية الهداية» و«ميزان العمل» و«أيها الولد» و«الكشف المبين في غرور الخلق أجمعين».

ومع ذلك، فوجود كتاب صغير، قريب المتناول، يجمع بعضاً من وصاياه ومواعظه، يعد أمراً مستحسناً.. يلبي حاجة من لا يجد الوقت للوقوف علىٰ المطولات أو البحث عن «المفردات» من رسائله..

ولهذا رأيت أن أضم هذا العدد الجديد إلىٰ السلسلة المذكورة، فهو واسطة العقد فيها..

وسوف يكون عرض ما وقع الاختيار عليه من الأقوال والمواعظ في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: وفيه نصوص مختارة من كتاب «الإحياء» وكتاب «بداية الهداية» وغيرهما، وسيكون تحت عنوان «مختارات».

الفصل الثاني: وسيكون فيه عرض لرسالة «أيها

الولد» التي تحمل في طياتها الكثير من النصائح والمواعظ التي يحتاج إليها كل مسلم.

الفصل الثالث: وفيه يكشف لنا الإمام الغزالي عن مرض قد استشرىٰ أمره حتىٰ عمّ معظم الناس. وهو مرض «الغرور» والذي أفرده في رسالة عنوانها «الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين» وقد طبعت أكثر من مرة، وهي اختصار للكتاب العاشر من ربع المهلكات من كتاب «الإحياء».

ولما كان كل إنسان معرضاً للوقوع في شبكة هذا المرض، رأيت أن يكون هذا الموضوع جزأً من هذا الكتاب، الذي يهدف إلىٰ تصحيح السلوك، وتزكية النفس.

تلك هي العناصر المكوّنة لهذا الكتاب، أردتها نماذج تكون بين يدي القارئ عن أسلوب الغزالي في التربية، ولم أقصد إلىٰ التوسع.. لأن من أراد ذلك سيجد بغيته في كتاب «الإحياء» أو في «المهذب من إحياء علوم الدين» الذي يسّر الله لي إعداده.

هذا وأرجو الله تعالىٰ أن ينفعنا بما نسمع ونقرأ من هذه المواعظ وما ماثلها، وأن يجعل أعمالنا

خالصة له، إنه نِعْم المسؤول، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

٥ محرم سنة ١٤٢٦هـ
١٤/ ٢/ ٢٠٠٥م

وكتبه

صالح أحمد الشّامي

نبذة عن حياة الإمام الغزالي

حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي، محمد بن محمد بن محمد الطوسي، الملقب بزين الدين، ولد بطوس من إقليم خراسان عام ٤٥٠هـ.

كان والده يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بطوس، فلما حضرته الوفاة وصّىٰ به وبأخيه أحمد إلىٰ صديق متصوف من أهل الخير، وقال له: إن لي لتأسفاً عظيماً علىٰ تعلم الخط، وأشتهي استدراك ما فاتني في ولديّ هذين، فعلمهما ولا عليك أن تنفد في ذلك جميع ما أخلفه لهما.

فلما مات أقبل الصوفي علىٰ تعليمهما إلىٰ أن فني ذلك النَّزر اليسير الذي خلفه لهما أبوهما، وتعذر علىٰ الصوفي القيام بقوتهما، فقال لهما: اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من الفقر

والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكما به، وأصلح ما أرىٰ لكما أن تلجأا إلىٰ مدرسة، فإنكما من طلبة العلم، فيحصل لكما قوت يعينكما علىٰ وقتكما.

ففعلا ذلك، وكان هو السبب في سعادتهما وعلوّ درجتهما.

وكان الغزالي يحكي هذا ويقول: طلبنا العلم لغير الله، فأبىٰ أن يكون إلا لله.

* * *

قرأ الغزالي في صباه طرفاً من الفقه ببلدة «طوس» علىٰ الإمام أحمد الراذكاني، ثم سافر إلىٰ «جرجان» ليأخذ عن الإمام أبي نصر الإسماعيلي، فسمع منه، وكتب عنه، وعلق عنه التعليقة، ثم رجع إلىٰ طوس.

قال الإمام أسعد الميهني: فسمعته يقول: قطعت علينا الطريق، وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا، فتبعتهم، فالتفت إليّ مقدمهم وقال: ارجع ويحك، وإلا هلكت، فقلت له: أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن تردَّ علي تعليقتي فقط، فما هي بشيء تنتفعون به، فقال لي: وما هي تعليقتك؟ فقلت: كتب في تلك

المخلاة، هاجرت لسماعها وكتابتها، ومعرفة علمها، فضحك وقال: كيف تدَّعي أنك عرفت علمها، وقد أخذناها منك، فتجردت من معرفتها، وبقيت بلا علم، ثم أمر بعض أصحابه فسلَّم إليّ المخلاة.

قال الغزالي: هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري، فلما وافيت «طوس» أقبلت علىٰ الاشتغال ثلاث سنين حتىٰ حفظت جميع ما علقته، وصرت بحيث لو قطع الطريق عليَّ لم أتجرد من علمي.

* * *

ثم إن الغزالي قدم «نيسابور» ولازم إمام الحرمين أبا المعالي الجويني (٤١٩ ـ ٤٧٨هـ) وجدَّ واجتهد، حتىٰ برع في المذهب «الشافعي» والخلاف، والجدل، والأصلين «أصول الدين وأصول الفقه»، والمنطق، وقرأ الحكمة والفلسفة، وأحكم كل ذلك، وفهم كلام أرباب هذه العلوم، وتصدىٰ للرد عليهم وإبطال دعاويهم.

وصنف في كل فن من هذه العلوم كتباً، أحسن تأليفها، وأجاد وضعها.

وكان شديد الذكاء، سديد النظر، عجيب الفطرة، مفرط الإدراك، قوي الحافظة، بعيد الغور،

غواصاً علىٰ المعاني الدقيقة.. حتىٰ وصفه أستاذه الجويني بقوله: الغزالي بحر مغدق.

قال الحافظ عبد الغافر بن إسماعيل واصفاً الغزالي في هذه المرحلة من حياته: وجدَّ واجتهد حتىٰ تخرّج في مدة قريبة، وبزَّ الأقران، وحمل القرآن، وصار أنظر أهل زمانه، وأوحد أقرانه في أيام إمام الحرمين. وكان الطلبة يستفيدون منه، ويدرس لهم ويرشدهم، ويجتهد في نفسه، وبلغ الأمر به إلىٰ أن أخذ في التصنيف..



وقد بقي الغزالي في نيسابور حتىٰ توفي إمام الحرمين عام ٤٧٨هـ فخرج إلىٰ المخيم السلطاني قاصداً الوزير «نظام الملك»[١] الذي كان مجلسه محطّ

---

(١) نظام الملك: هو الحسن بن علي الطوسي، الملقب بقوام الدين (٤٠٨ ـ ٤٨٥هـ) وزير عالي الهمة، سمع الحديث. واتصل بـ«إلب أرسلان» فاستوزره، فأحسن التدبير، وبقي في خدمته عشر سنين، ولما مات خلفه ابنه «ملك شاه» فصار الأمر كله لنظام الملك، وكان من حسنات الدهر.

رحال العلماء، ومقصد الأئمة والفصحاء، فوقعت للغزالي اتفاقات حسنة من الاحتكاك بالأئمة والعلماء، فناظر الفحول، وقهر الخصوم، وظهر كلامه علىٰ الجميع، واعترفوا بفضله. وظهر اسمه في الآفاق، واشتهر في الأقطار.

وظل في المخيم السلطاني حتىٰ عام ٤٨٤هـ حيث ولي التدريس في المدرسة النظامية ببغداد. فسار إلىٰ العراق ليقوم بهذه المهمة.

* * *

قدم الغزالي بغداد وقد بلغ الرابعة والثلاثين من العمر، وكانت شهرته قد سبقته إليها، فاستقبل بها استقبالاً حافلاً، ودرس بالنظامية، وأعجب الخلق بحسن كلامه وكمال فضله، وفصاحة لسانه، ونكته الدقيقة وإشاراته اللطيفة.

وقد بلغ أوجّ مجده العلمي في هذه المدرسة، حيث كان يحضر درسه أربعمائة عمامة من أكابر العلماء. وعلت حشمته ودرجته في بغداد، حتىٰ كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة، وصار إمام العراق بعد إمامة خراسان، كما يقول معاصره

الثقة عبد الغافر[1].

وفي هذه المرحلة جدَّد المذهب في الفقه، فصنّف فيه تصانيف، وسبك الخلاف فجدَّد فيه أيضاً.. كما صنف في الأصول.

بلغ الغزالي في تلك الأيام قمة المجد، وأتته الدنيا خاضعة ذليلة.. أتته بالمال والشهرة وذيوع الاسم، كما أتته بالجاه ونفوذ الكلمة.. واستمتع بذلك كله.

ولكنه مع ذلك لم ينقطع عن طلب العلم، فطالع العلوم الدقيقة والكتب المصنفة فيها. مما كان له كبير الأثر في التحول الكبير الذي غير مجرىٰ حياته فيما بعد. ولنترك للإمام الغزالي الحديث. فهو خير من يشرح لنا قصته في هذا التحول:

---

(١) عبد الغافر بن إسماعيل، خطيب نيسابور وإمامها، كان إماماً حافظاً محدثاً.. ثقة، ولد سنة (٤٥١هـ)، وتوفي سنة (٥٢٩هـ). وقد ترجم للإمام الغزالي ـ وهو المعاصر له ـ ترجمة وافية تعد أصلاً في ترجمات الغزالي. وقد ذكرها ابن السبكي في «طبقات الشافعية الكبرىٰ» عند ترجمة الإمام الغزالي.

«ابتدأت بمطالعة كتبهم مثل «قوت القلوب» لأبي طالب المكي رَحِمَهُ اللهُ، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد..

فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلُّم، بل بالذوق والسلوك..

وكان قد ظهر عندي: أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوىٰ، وكفِّ النفس عن الهوىٰ، وأن رأس ذلك كله: قطع علاقة القلب عن الدنيا، بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلىٰ دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة علىٰ الله تعالىٰ، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق.

ثم لاحظت أحوالي: فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من الجوانب.

ولاحظت أعمالي ـ وأحسنها التدريس والتعليم ـ فإذا أنا فيها مقبل علىٰ علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة، ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا

هي غير خالصة لوجه الله تعالىٰ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه، وانتشار الصيت، فتيقنت أني علىٰ شفا جرف هار، وأني أشفيت علىٰ النار، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال.

فلم أزل أفكر فيه مدة، وأنا بعد علىٰ مقام الاختيار، أصمم العزم علىٰ الخروج من بغداد، ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحلّ العزم يوماً، وأقدم فيه رجلاً، وأؤخر عنه أخرىٰ، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة، إلا وتحمل عليها جنود الشهوة حملة فتفترها عشية، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني سلاسلها إلىٰ المقام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيلَ الرحيل، فلم يبق من العمر إلا القليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل، فإن لم تستعد الآن للآخرة، فمتىٰ تستعد؟ وإن لم تقطع هذه العلائق فمتىٰ تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم علىٰ الهرب والفرار.

ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حال عارضة، إياك أن تطاوعها، فإنها سريعة الزوال، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض، والشأن المنظوم الخالي

عن التكدير والتنغيص، والأمن المسلم الصافي عن منازعة الخصوم، ربما التفتت إليك نفسك. ولا يتيسر لك المعاودة.

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة، قريباً من ستة أشهر، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حدّ الاختيار إلىٰ الاضطرار، إذ قفل الله علىٰ لساني حتىٰ اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً للقلوب المختلفة إليَّ فكان لساني لا ينطق بكلمة واحدة، ولا أستطيعها البتة..

ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلىٰ الله تعالىٰ، التجاء المضطر، الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل علىٰ قلبي الإعراض عن الجاه، والمال والأولاد والأصحاب.

وأظهرت عزم الخروج إلىٰ مكة..»[١].

* * *

---

(١) «المنقذ من الضلال» (ص١٣٩ ـ ١٤٣) بتقديم الدكتور عبد الحليم محمود.

وهكذا غادر الغزالي بغداد في شهر ذي القعدة سنة ثمان وثمانين، فحج وتوجه إلىٰ الشام. فأقام بها عشر سنين. قضىٰ بعضها في بيت المقدس.

وكان غالب وقته فيها عزلة وخلوة، ورياضة ومجاهدة للنفس، واشتغالاً بتزكيتها، وتصفية القلب لذكر الله تعالىٰ، وكان يعتكف في منارة مسجد دمشق طول النهار.

ويصف معاصره عبد الغافر انقلابه هذا فيقول: «وسلك طريق الزهد والتأله، وترك الحشمة، وطرح ما نال من الدرجة للاشتغال بأسباب التقوىٰ، وزاد الآخرة، فخرج عما كان فيه.. وأخذ في مجاهدة النفس، وتغيير الأخلاق، وتحسين الشمائل.. فانقلب شيطان الرعونة، وطلبُ الرياسة والجاه، والتخلق بالأخلاق الذميمة، إلىٰ سكون النفس، وكرم الأخلاق، والفراغ عن الرسوم والترتيبات، وتزيّا بزيّ الصالحين، وقصر الأمل.. والاستعداد للرحيل إلىٰ الدار الباقية..».

قال: «وأخذ في التصانيف المشهورة التي لم يسبق إليها مثل «إحياء علوم الدين» والكتب المختصرة

منه، مثل الأربعين وغيرها من الرسائل، التي من تأملها علم محل الرجل من فنون العلم»[1].

* * *

ثم عاد الغزالي بعد تلك العزلة التي استمرت عشر سنوات إلىٰ بلدة طوس، ليتابع عزلته سنة أخرىٰ.

وتحت إلحاح الولاة وتكرار طلبهم بالخروج إلىٰ الناس.. خرج إلىٰ نيسابور ليدرس بالمدرسة النظامية فيها وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة ٤٩٩هـ وقال في ذلك:

«ويسر الله الحركة إلىٰ نيسابور للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وبلغت مدة العزلة إحدىٰ عشرة سنة»[2].

ويشرح لنا الغزالي عودته إلىٰ التعليم، وأنها كانت بأسلوب جديد، ونية جديدة، وهدف جديد يختلف كل الاختلاف عما كان عليه سابقاً فيقول:

---

(١) «المنقذ من الضلال» (ص٨١ ـ ٨٢).

(٢) المرجع السابق (ص١٥٩).

«وأنا أعلم أني وإن رجعت إلىٰ نشر العلم، فما رجعت، فإن الرجوع عود إلىٰ ما كان. وكنت في الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه، وأدعو إليه بقولي وعملي، وكان ذلك قصدي ونيتي، وأما الآن فأدعو إلىٰ العلم الذي به يترك الجاه، ويعرف به سقوط رتبة الجاه.

هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي، يعلم الله ذلك مني.

وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري، ولست أدري أأصل إلىٰ مرادي، أو أُخْتَرَمُ دون غرضي؟ ولكني أؤمن إيمان يقين ومشاهدة؛ أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأني لم أتحرك لكنه حركني، وأني لم أعمل لكنه استعملني، فأسأله: أن يصلحني أولاً، ثم يصلح بي، ويهديني، ثم يهدي بي، وأن يريني الحق حقاً، ويرزقني اتباعه، ويريني الباطل باطلاً ويرزقني اجتنابه»[1].

* * *

(١) «المنقذ من الضلال» (ص١٥٩ ـ ١٦٠).

لم تطل إقامته في نيسابور، وكانت المدة التي درسها في النظامية فيها يسيرة، ثم ترك ذلك قبل أن يُترك، وعاد إلىٰ بيته في طوس، واتخذ في جواره مدرسة لطلبة العلم، وخانقاه للصوفية، ووزع وقته علىٰ وظائف: من ختم للقرآن، ومجالسة أهل القلوب، وتدريس لطلبة العلم، وإدامة صلاة وصيام..

وكان ذلك بحيث لا تخلو لحظاته ولحظات من معه عن فائدة.

وكان خاتمة أمره، إقباله علىٰ حديث المصطفىٰ ﷺ ومجالسة أهله، ومطالعة «الصحيحين»: البخاري ومسلم. اللذين هما حجة الإسلام، ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام، كما قال عبد الغافر..

توفي بطوس يوم الاثنين الرابع عشر من جماد الآخرة، سنة خمس وخمسمائة، رحمه الله تعالىٰ رحمة واسعة بمنّه وكرمه[1].

(١) مراجع الترجمة:
- «طبقات الشافعية الكبرىٰ»، لابن السبكي (٤/ ١٠١) وما بعدها.
=

ثقافة الغزالي ومؤلفاته:

أما سعة علمه وثقافته فنترك الحديث عنها لشيخ الأزهر المرحوم محمد مصطفىٰ المراغي، حيث يقول:

«إذا ذكرت أسماء العلماء، اتجه الفكر إلىٰ ما امتازوا به من فروع العلم، وشعب المعرفة، فإذا ذكر ابن سينا أو الفارابي، خطر بالبال فيلسوفان عظيمان من فلاسفة الإسلام، وإذا ذكر البخاري ومسلم وأحمد، خطر بالبال رجال لهم أقدارهم في الحفظ، والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال.

أما إذا ذكر الغزالي، فقد تشعّبت النواحي، ولم يخطر بالبال رجل واحد، بل خطر بالبال رجال متعددون، لكل واحد قدرته، وقيمته، يخطر بالبال: الغزالي الأصولي الحاذق الماهر، والغزالي الفقيه

= - «إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين»، للزبيدي (٦/١) وما بعدها.
- «المنقذ من الضلال»، للإمام الغزالي بتقديم عبد الحليم محمود.
- «وفيات الأعيان»، لابن خلكان (٢١٦/٤) وما بعدها.

الحر، والغزالي المتكلم، إمام السنَّة وحامي حماها، والغزالي الاجتماعي، الخبير بأحوال العالم، وخفيات الضمائر، ومكنونات القلوب[1]، والغزالي الفيلسوف، أو الذي ناهض الفلسفة، وكشف عما فيها، إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره. رجل متعطش إلىٰ معرفة كل شيء، نهم إلىٰ فروع المعرفة»[2].

ومصنفات الغزالي كثيرة، منها:

في الفقه: «البسيط»، و«الوسيط»، و«الوجيز»، و«الخلاصة».

وفي الأصول: «المنخول»، و«المستصفىٰ» الذي اختصره من كتابه: «تهذيب الأصول».

وفي الفلسفة والمنطق والكلام: «مقاصد الفلاسفة»، و«تهافت الفلاسفة»، و«المنقذ من الضلال»، و«الاقتصاد في الاعتقاد»، و«فيصل

---

(١) واضح من السياق أنه ليس المقصود: العلم بالغيب، وإنما الحديث عن الخبرة والعلم بالدراسات النفسية.

(٢) «الإمام الغزالي بين مادحيه وقادحيه»، للدكتور القرضاوي (ص١٨).

التفرقة»، و«قواعد العقائد»، و«المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ»، و«معيار العلم»، و«محك النظر»، و«إلجام العوام عن علم الكلام»، و«جواهر القرآن».

وفي التصوف والتربية والأخلاق: «إحياء علوم الدين»، و«منهاج العابدين»، و«بداية الهداية»، و«ميزان العمل»، و«معراج السالكين»، و«أيها الولد».

وفي الفرق والأديان: «فضائح الباطنية»، و«حجة الحق»، و«مفصل الخلاف».. وغير ذلك.

نكتفي بهذا القدر من الترجمة ومن أراد التوسع فليرجع إلىٰ ذلك في مظانه[1].

(١) وانظر في ذلك «الإمام الغزالي حجة الإسلام ومجدد المائة الخامسة» للمؤلف في سلسلة أعلام المسلمين الصادرة عن دار القلم بدمشق.

شهادات

درجتُ في هذه السلسلة علىٰ ذكر بعض شهادات العلماء بالعلَم المترجَم له لبيان مكانته، واستكمالاً لترجمته، والشهادات للإمام الغزالي أكثر من أن يتسع لها هذا الكتاب، ولكني أذكر نماذج قليلة من هذه الشهادات:

قال الإمام الذهبي:

الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، أعجوبة الزمان، زين الدين أبو حامد، صاحب التصانيف، والذكاء المفرط..

وقال الحافظ ابن كثير:

برع ـ الغزالي ـ في علوم كثيرة، وله مصنفات منتشرة في فنون متعددة، فكان من أذكياء العالم في كل ما يتكلم به، وقد ساد في شبابه..

وقال شيخه إمام الحرمين:

الغزالي بحر مغدق.

وقال معاصره الحافظ عبد الغافر الفارسي:

الغزالي حجة الإسلام والمسلمين، إمام أئمة الدين، لم ترَ العيون مثله لساناً وبياناً، ونطقاً وخاطراً، وذكاءً وطبعاً.

وقال الحافظ ابن النجار:

إمام الفقهاء علىٰ الإطلاق، وربانى الأمة بالاتفاق، مجتهد زمانه، وعين وقته وأوانه.. قام بنصر السنّة، وإظهار الدين.

وقال الحافظ ابن عساكر:

كان إماماً في علم الفقه مذهباً وخلافاً، وفي أصول الديانات..

وقال العلامة الطرطوشي:

رأيت الرجل وكلمته، فرأيته رجلاً من أهل العلم، قد نهضت به فضائله، واجتمع فيه العقل والفهم، وممارسة العلوم طول زمانه.

وقال الإمام ابن الجوزي:

صنّف الكتب الحِسان في الأصول والفروع، التي انفرد بحسن وضعها وترتيبها، وتحقيق الكلام فيها.

وقال العلامة ابن عماد الحنبلي:

.. وبالجملة: ما رأىٰ الرجل مثل نفسه..

وقال تقي الدين السبكي:

حجة الإسلام.. جامع أشتات العلوم، والمبرز في المنقول منها والمفهوم[1].

---

(١) هذه الأقوال وغيرها في «البداية والنهاية» و«شذرات الذهب» و«طبقات الشافعية الكبرىٰ».

محاور الوعظ عند الغزالي

إن غاية العالم المخلص هي تصحيح المسار في مجتمعه الذي يخاطبه، فمهمة العالم شبيهة بمهمة الطبيب الذي يعالج المريض.. لا بد له من التعرف علىٰ أسباب المرض حتىٰ تكون المعالجة مفيدة والدواء فاعلاً..

ولقد شاع في زمن الغزالي عدد من الأمراض الفتّاكة..

فالفلسفة كادت تسيطر علىٰ الطبقة المثقفة لولا تصدي الغزالي لها وقد استطاع أن يقضي عليها بضربة قاصمة.. لكن أثارها ما زالت..

والباطنية يسرحون ويرتعون، حيث لا يجرؤ أحد علىٰ نقدهم لأن حياته ستكون ثمناً لذلك.. ولكن الغزالي رأىٰ أعظم الجهاد في فضح آرائهم الخبيثة. وأن الشهادة في هذه المعركة ترفع صاحبها ليكون مع سيّد الشهداء حمزة رضي الله عنه فألّف كتابه «فضائح الباطنية»

وغيره.. ليكون السد المانع في وجه ذلك السيل المخيف..

ولعلّ خطر المنحرفين من المتصوفة لم يكن أقل من خطر الباطنية، فكان لا بدّ من مواجهته وبيان ترهاته وشطحاته.. فألف كتاب «إحياء علوم الدين» وغيره من أجل ذلك..

وعلماء العصر فريقان: فريق همّه الدنيا، وهو الذي تقرب إلىٰ الحكام والأمراء.. وفريق آخر سيطر عليه الغرور، فهو مشغول بغروره..

هذه هي الحال حين جاء الغزالي..[1].

ولهذا كانت محاور الوعظ متعددة الاتجاهات في مواجهة تلك الأخطار، نذكر منها علىٰ سبيل الاختصار:

١ ـ التزام الكتاب والسُّنّة:

إن التزام الكتاب والسُّنّة هو الضابط الذي يُبقي

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب «الإمام الغزالي» في سلسلة «أعلام المسلمين» التي نشرتها دار القلم بدمشق.

المسلمين في الاتجاه الصحيح.. ويحفظ عليهم دينهم وأخلاقهم.

وقد كان إلحاح الغزالي عليه كبيراً، فهو في كل مناسبة يذكر بهذا الموضوع.. وكل من يقرأ كتبه يجد ذلك معلماً واضحاً في خط سيره.. ومن أمثلة ذلك:

جاء في رسالته «أيها الولد» قوله: «اعلم أن الطاعة والعبادة، متابعة الشرع في الأوامر والنواهي، بالقول والفعل، يعني كل ما تقول وتفعل، وتترك قوله وفعله، يكون باقتداء الشرع».

وقال: «وينبغي لك أن يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع، إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة».

ويقول في ميزان العمل: «اعلم أن سالك سبيل الله تعالىٰ قليل، والمدعي فيه كثير، ونحن نعرفك علامتين له: الأولىٰ: أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع، موقوفة علىٰ حدّ توقيفاته، إيراداً وإصداراً، وإقداماً وإحجاماً..».

فميزان الشرع هو الضابط لكل مسلم..

٢ ـ العقيدة الصحيحة ليست في علم الكلام:

عندما تحدث الغزالي عن العلوم في كتابه «الإحياء» لم يعدَّ علم الكلام علماً وقال:

«اعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة، وهي من البدع، وإما مشاغبة بمناقضات.. وتطويل بنقل لمقالات أكثرها ترهات وهذيانات.. مما لا يتعلق بالدين».

ثم بيَّن أن ذلك لم يكن في الصحابة فقال: «فلقد قبض رسول الله ﷺ عن آلاف من الصحابة رضي الله عنهم، كلّهم علماء بالله، أثنىٰ عليهم رسول الله ﷺ، ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الكلام»[(١)].

فالعقيدة الصحيحة إنما هي في القرآن والسُّنّة.

٣ ـ القواعد الكلية:

حرص الإمام الغزالي علىٰ التوجيه إلىٰ القواعد

---

(١) «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٢ ـ ٢٣).

الكلية، فهي مقاييس يسهل التعامل معها، والرجوع إليها بشأن القيام بأوامر هذا الدين:

ـ فالدين شطران: أحدهما: ترك المناهي، والآخر: فعل الطاعات وترك المناهي هو الأشد..

ـ وأوامر الله تعالىٰ فرائض ونوافل، فالفرض رأس المال، وبه تحصل النجاة، والنفل به الربح وبه الفوز بالدرجات..

ـ ومعرفة الأولويات وترتيبها أمر واجب: فالفروض مقدمة علىٰ النوافل، وفروض الأعيان مقدمة علىٰ فروض الكفاية، وما يفوت مقدم علىٰ ما لا يفوت..

٤ ـ قيمة الوقت:

ينبّه الإمام الغزالي علىٰ قيمة الوقت، ووجوب الحرص عليه، وعدم إنفاقه فيما لا فائدة فيه.

فالوقت هو عمر الإنسان، وكل نَفَس من الأنفاس جوهرة لا تقدر بثمن لأنها إذا فاتت لا تعود.

وإذا كان الأمر كذلك، فينبغي أن يحرص الإنسان علىٰ وقته فلا يكون قضاؤه إلا في خير.

٥ ـ تزكية النفس:

لقد أولىٰ الغزالي هذا الجانب اهتمامه، وبعد أن كان هذا الموضوع مستقلاً عن الفقه عند من سبقه، فإن الغزالي جمع الأمرين وربط بينهما.. فتزكية النفس ينبغي أن يسبقها فقه في دين الله.. ولعل الترتيب الذي قدمه في كتابه الإحياء يوضح لنا هذا الأمر.

فقد قسّم هذا الكتاب أربعة أقسام:

وفي القسم الأول فقه العبادات، وفي الثاني فقه المعاملات، وفي الثالث الحديث عن المهلكات وفي الرابع المنجيات.

فالاستقامة في العمل بفقه العبادات والمعاملات أولاً، وهذا أمر يتطلّب «العلم» ولذلك كان العلم أمراً أولياً في بدء طريق تهذيب النفس..

ثم تكون الطهارة في اجتناب المهلكات..

وتأتي بعد ذلك «تزكية النفس» بالتعامل مع المنجيات من التوبة والإخلاص والمراقبة والمحاسبة.

إن أمر تزكية النفس هو جلّ ما سوف نقرؤه في هذه المواعظ.

٦ ـ دقائق في فقه تزكية النفس:

لم يكتفِ الغزالي بالعناوين الكبيرة وبيانها وشرحها في هذا الباب. بل ذهب يبحث في أعماق النفس عما يحول دون تزكيتها ونضرب مثلاً لذلك:

فالغيبة ـ التي حرمها الإسلام ـ ليست قاصرة علىٰ اللسان. كما هو المعروف عند الحديث عنها، ولكنها عند الغزالي، قد تكون باللسان، وقد تكون بالتعريض والفعل، والإشارة، والإيمان والغمز، والهمز، والكتابة، والحركة، وكل ما يفهم المقصود.

وقد تكون الغيبة بالقلب، ويوضح الغزالي ذلك بقوله: كما يحرم أن تحدث غيرك بلسانك بمساوئ الغير، فليس لك أن تحدث نفسك، وتسيء الظن بأخيك[1]..

وأخبث أنواع الغيبة: ما يظهره المرائي علىٰ طريقة أهل الصلاح ليظهر من نفسه التعفف عن الغيبة.. وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول:

---

(١) «المهذب من إحياء علوم الدين» (٢/ ٨٥) نشرته دار القلم بدمشق.

الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول علىٰ السلطان، أو يقول: نعوذ بالله من قلة الحياء، نسأل الله أن يعصمنا منها، وإنما قصده أن يفهم عيب الغير، فيذكره بصيغة الدعاء..

وهكذا ذهب الغزالي يبحث عن الدقائق.. فالتواضع قد يخفي في طيّاته الكبر وقد يكون وراء الزهد حب الشهرة.. وهكذا[1].

٧ ـ العقل والتقليد:

يرىٰ الإمام الغزالي أن للعقل دوراً كبيراً في فهم أسرار التشريع، وإذا كان التزام الشرع ـ الكتاب والسنّة ـ

---

(١) هذا المسلك في البحث أدى بالإمام الغزالي إلى استنباط دقائق في الفقه لم تبحث إلا في زمننا ـ أي بعد تسعة قرون ـ ومن أمثلة ذلك: حديثه عن ما نسميه اليوم «الملكية الفكرية» حيث يعتبرُ سرقةَ الأفكار «سرقه»، فيقول أثناء حديثه عن المؤلفين..: «ولعله في تصنيفه لا يخلو من الثناء على نفسه، ولعله يحكي ما يستحسنه ولا يَعْزِيه إلى قائله، فينقله كالسارق له، أو يغيره أدنى تغيير، كالذي يسرق قميصاً فيتخذه قباء حتى لا يعرف أنه مسروق» [«المهذب من الإحياء» ٢/٢٢٩].

واجباً، فإن علىٰ العقل أن يعمل علىٰ فهم الحِكم والأسرار، حتىٰ يكون صاحبه عالماً لا وعاء علم.

ولهذا حصر التقليد بالرسول ﷺ فلا يكون التقليد إلا له، ولأصحابه من حيث إن فعلهم يدل علىٰ سماعهم من رسول الله ﷺ.

ويرفض التقليد خارج هذا الإطار، لأنه تعطيل للعقل.. ومن عطل عقله لا يكون عالماً.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما المقلد صاحب الشرع ﷺ فيما أمر به وقاله، وإنما يقلَّد الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ من حيث إن فعلهم يدل علىٰ سماعهم من الرسول ﷺ».

فعلىٰ العالم أن يعرف الحق، وبه يعرف الرجال، وهذا لا يكون بتعطيل العقل..

٨ ـ إصلاح التصوف:

إصلاح التصوف من المحاور الرئيسة التي شغلت الإمام الغزالي، ولذلك بذل جهده في رسم الطريق الصحيح لذلك، حيث يبدأ من العلم.. فالجاهل لا يكون صوفياً أبداً.. وما كتاب «الإحياء» إلا المنهج الذي وضعه لذلك.

ويحذر من الاهتمام بالشطحات والأوهام..

وقد بذل الإمام جهده في بيان انحرافات الصوفية، حتىٰ يحذرها الناس، ويحذروا أصحابها..

ولذلك أرّخ بعضهم للتصوف بما قبل الغزالي، وما بعد الغزالي.

٩ ـ إصلاح العلماء:

العلماء هم قادة الأمة، وورثة الأنبياء، وصلاحهم فيه صلاح الناس، وفي فسادهم خطر كبير علىٰ الأمة..

ولذلك كَثُرت أقوال الغزالي في بيان صفات علماء الدنيا وصفات علماء الآخرة والتأكيد علىٰ قرن العلم بالعمل، فالعلم وحده لا ينقذ الإنسان في يوم الحساب.

وفي رسالته «أيها الولد» الكثير من بيان مهمة «العالم» وبيان المخاطر والمزالق التي ربما وقع فيها.. و«الإحياء» مليء بذلك.

١٠ ـ الإخلاص:

الإخلاص: هو المحور الذي تقوم عليه التربية

الإسلامية. وقد أمر الله تعالىٰ بإخلاص الدين فقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

والإخلاص: تخليص العمل عن الشوائب كلها ـ قليلها وكثيرها ـ حتىٰ يتجرد فيه القصد لله، والتقرُّب إليه، فلا يكون في العمل باعث آخر غير ذلك..

فالإخلاص ينزّه صاحبه عن الرياء والنفاق.. والنظر بعمله إلىٰ الناس.

وقد عمل الإمام الغزالي علىٰ إيضاح هذا المعنىٰ وتقريبه إلىٰ الأفهام بالأمثلة حتىٰ يكون واضحاً بيّناً..

* * *

تلك هي بعض المحاور التي تظهر واضحة في مواعظ الغزالي ورسائله وكتبه، وهناك محاور أخرىٰ سيجدها القارئ الكريم من خلال مطالعته لهذه المواعظ، وكلها تعمل علىٰ انضباط المسلم مع أوامر الله سبحانه وتعالىٰ في ظاهره وباطنه.

الفصل الأول

مختارات

الخشوع

قال أبو حامد:

اعلم أن الخشوع ثمرةُ الإيمان ونتيجةُ اليقين الحاصل بجلال الله.

ومن رزق ذلك، فإنه يكون خاشعاً في الصلاة، وفي غير الصلاة، بل في خلوته.

فإن موجب الخشوع: معرفة اطلاع الله تعالىٰ علىٰ العبد، ومعرفة جلاله، ومعرفة تقصير العبد.

فمن هذه المعارف يتولد الخشوع، وليس مختصاً بالصلاة[1].

مسافرون

قال أبو حامد: الناس في هذا العالم سُفر[2].

---

(١) «المهذب من الإحياء» (١/ ١٤٣) نشرته دار القلم بدمشق.

(٢) سفر: جمع مسافر.

وأول منازلهم المهد، وآخرها اللحد، والوطن هو الجنة أو النار.

والعمر مسافة السفر، فسنينه مراحله، وشهوره فراسخه، وأيامه أمياله، وأنفاسه خطواته.

وطاعته بضاعته، وأوقاته رؤوس أمواله.

وشهواته وأغراضه قطاع طريقه.

وربحه الفوز بلقاء الله تعالىٰ في دار السلام، مع الملك الكبير، والنعيم المقيم.

وخسرانه البعد من الله تعالىٰ.

فالغافل عن نَفَس من أنفاسه، حتىٰ ينقضي في غير طاعة تُقرِّبه إلىٰ الله زلفىٰ، متعرض في يوم التغابن لحسرة ما لها منتهىٰ.

ولهذا الخطر العظيم، والخطب الهائل، شمر الموفقون عن ساق الجد، وودعوا ملاذَّ النفس، واغتنموا بقايا العمر..[1].

---

(١) «المهذب من الإحياء» (١/ ٢٧٤).

الطريق إلىٰ السعادة

قال أبو حامد:

أعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي: السعادة الأبدية.

وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها.

ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلىٰ العمل إلا بالعلم بكيفية العمل.

فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم، فهو إذن أفضل الأعمال[١].

الشبه بالصحابة

قال أبو حامد:

اعلم ـ تحقيقاً ـ أن أعلم أهل الزمان، وأقربهم إلىٰ الحق، أشبهُهم بالصحابة، وأعرفهم بطريق السلف، فمنهم أخذ الدين.

ولذلك قال علي رضي الله عنه: «خيرنا أتبعنا لهذا الدين»

---

(١) «المهذب من إحياء علوم الدين» (١/ ٤٦).

لما قيل له: خالفت فلاناً[1].

الطهور شطر الإيمان

قال أبو حامد:

يبعد أن يكون المراد بقوله ﷺ: (الطهور شطر الإيمان) عمارة الظاهر بالتنظيف، بإفاضة الماء وإلقائه، وتخريب الباطن، وإبقائه مشحوناً بالأخباث والأقذار، هيهات هيهات..

فالطهارة لها أربع مراتب:

الأولىٰ: تطهير الظاهر عن الأحداث، وعن الأخباث والفضلات..

الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

الرابعة: تطهير السرّ عما سوىٰ الله تعالىٰ، وهي طهارة الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ والصديقين.

---

(١) المصدر قبله (١/ ٧٧).

والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها[1].

الصلاة مناجاة

قال أبو حامد:

الصلاة مناجاة، فكيف تكون مع الغفلة؟!

ويروىٰ عن علي بن الحسين ـ زين العابدين[2] ـ: أنه كان إذا توضأ اصفرَّ لونه، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟[3].

كن عالماً لا وعاء علم

قال أبو حامد:

علىٰ العالم أن يكون اعتماده في علومه علىٰ بصيرته، وإدراكه بصفاء قلبه، لا علىٰ تقليد من يسمعه من غيره.

---

(١) المصدر قبله (١/ ١٠٥ ـ ١٠٦).

(٢) هو الإمام زين العابدين، علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم، العابد الوفي الجواد.. مناقبه كثيرة.

(٣) «المهذب من إحياء علوم الدين» (١/ ١٢٣).

وإنما المقلَّدُ هو صاحب الشرع ﷺ فيما أقر به وقاله.

وإنما يقلَّد الصحابةُ رضي الله عنهم من حيث إن فعلهم يدلُّ علىٰ سماعهم من رسول الله ﷺ.

ثم إذا قلَّد صاحب الشرع ﷺ في تلقي أقواله وأفعاله، فينبغي أن يكون حريصاً علىٰ فهم أسراره.

وفعله ﷺ لا بدّ أن يكون لسرٍّ فيه، فينبغي أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال، فإنه إن اكتفىٰ بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم، ولا يكون عالماً[1].

الناس ثلاثة

قال أبو حامد:

الناس ثلاثة:

أحدهم: مثله مثل الغذاء، لا يستغنىٰ عنه.

والآخر: مثله مثل الدواء، يحتاج إليه في وقت دون وقت.

---

(١) المرجع قبله (١/ ٧٦).

والثالث: مثله مثل الداء، لا يحتاج إليه قط، ولكن العبد قد يبتلىٰ به. وهو الذي لا أنس فيه ولا نفع، فتجب مداراته إلىٰ الخلاص منه.

وفي مشاهدته فائدة عظيمة إن وفقت لها، وهو أن تشاهد من خبائث أحواله وأفعاله ما تستقبحه فتجتنبه.

فالسعيد من وعظ بغيره، والمؤمن مرآة المؤمن.

وقيل لعيسىٰ عليه السلام: من أدبك؟ فقال: ما أدّبني أحد، ولكن رأيت جهل الجاهل فاجتنبته[1].

آداب اجتماعية

قال أبو حامد:

كن كما قال بعض الحكماء: الْقَ صديقك وعدوك بوجه الرضا، من غير مذلة لهما، ولا هيبة منهما.

وتوقر من غير كبر، وتواضع من غير مذلة.

---

(١) «بداية الهداية»، للإمام الغزالي (ص١٤٤)، تحقيق أحمد شومان، مكتبة التراث.

وكن في جميع أمورك في أوسطها، فكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

ولا تنظر في عطفيك، ولا تكثر الالتفات إلىٰ ورائك.

وتحفظ من تشبيك أصابعك، والعبث بلحيتك وخاتمك. وتخليل أسنانك وإدخال إصبعك في أنفك، وكثرة بصاقك وتنخمك.. وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس، وفي الصلاة وغيرها.

وليكن مجلسك هادئاً، وحديثك منظوماً مرتباً، وأصغِ إلىٰ الكلام الحسن ممن حدثك من غير إظهار تعجب مفرط، ولا تحدِّث عن إعجابك بولدك وشِعرك، وكلامك وتصنيفك، وسائر ما يخصك.

ولا تتصنع تصنع المرأة في التزيُّن[1].

الدنيا والآخرة

قال أبو حامد:

دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك:

---

(١) المرجع قبله (ص١٥٤).

فالقريب الداني منهما، يسمىٰ «دنيا»، وهو كل ما قبل الموت.

والمتراخي المتأخر، يسمىٰ «آخرة»، وهو ما بعد الموت.

فكل ما لك فيه حظ ونصيب، وغرض وشهوة ولذة، عاجلَ الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقك.

وليس كل ذلك بمذموم:

ـ فما يصحبك في الآخرة، وتبقىٰ معك ثمرته بعد الموت، وهو العلم والعمل ـ العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله. . ، والعمل: الذي هو العبادة الخالصة لله تعالىٰ ـ فهذا ليس من الدنيا.

ـ وأما ما فيه حظ عاجل، ولا ثمرة له في الآخرة أصلاً، كالتلذذ بالمعاصي فهذا من الدنيا المذمومة. وكذلك الرفاهية التي تصل إلىٰ درجة الرعونات.

ـ وأما ما فيه حظ عاجل، وهو معين علىٰ أعمال الآخرة، كالطعام، واللباس وكل ما لا بدّ منه للإنسان لبقائه وصحته، فهذا ليس من الدنيا وهو تابع

للقسم الأول، وهو في حكم الوسيلة إليه[1].

لا تصحب

قال أبو حامد:

لا تصحب الأحمق، فصحبته إلىٰ الوحشة والقطيعة يرجع آخرها، وأحسن أحواله أن يضرك وهو يريد أن ينفعك، والعدو العاقل خير من الصديق الأحمق.

ولا تصحب من ساء خلقه، وهو الذي لا يملك نفسه عند الغضب والشهوة، ولا تصحب فاسقاً، مصراً علىٰ معصية كبيرة، لأن من يخاف الله لا يصر علىٰ كبيرة، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غوائله.

ولا تصحب حريصاً علىٰ الدنيا، فصحبته سمّ قاتل، لأن الطباع مجبولة علىٰ التشبُّه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري، فمجالسة الحريص تزيد في حرصك، ومجالسة الزاهد تزيد في زهدك.

ولا تصحب كذاباً، فإنك منه علىٰ غرور، فإنه

---

(١) «المهذب من الإحياء» (٢/ ١٢٧ ـ ١٢٨).

مثل السراب، يقرِّب منك البعيد، ويبعد منك القريب[1].

الطريق إلىٰ التواضع

قال أبو حامد:

اعتقادك ـ في نفسك ـ أنك خير من غيرك جهل محض.

بل ينبغي أن لا تنظر إلىٰ أحد إلا وترىٰ أنه خير منك، وأن الفضل له علىٰ نفسك:

فإن رأيتَ صغيراً، قلتَ: هذا لم يعصِ الله، وأنا عصيته، فلا شك أنه خير مني.

وإن رأيتَ كبيراً، قلتَ: هذا قد عبد الله قبلي، فلا شك أنه خير مني.

وإن كان عالماً، قلت: هذا قد أعطي ما لم أعطَ، وبلغَ ما لم أبلغ، وعلم ما جهلت، فكيف أكون مثله.

وإن كان جاهلاً، قلت: هذا قد عصىٰ الله

(١) «بداية المجتهد» (ص١٤١ ـ ١٤٣).

بجهل، وأنا عصيته بعلم، فحجة الله عليَّ آكد، وما أدري بِمَ يختم لي؟[1].

الشكر

قال أبو حامد:

في كل نَفَس من أنفاس العبد نعمة الله تتجدد عليه، يلزمه القيام بشكرها.

وأدنىٰ الشكر: أن يرىٰ النعمة من الله تعالىٰ، ويرضىٰ بما أعطاه.

وتمام الشكر في الاعتراف بلسان السر: أن الخلق كلهم يعجزون عن أداء شكره علىٰ أصغر جزء من نعمه، وإن بلغوا غاية المجهود. لأن التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها.

فيلزمك علىٰ كل شكر شكر إلىٰ ما لا نهاية له[2].

---

(١) «بداية المجتهد» (ص١٢٣).

(٢) «رسالة منهاج العارفين»، تحقيق أحمد شومان، مكتبة التراث، (ص٢٠).

الإحسان في المعاملة

قال أبو حامد:

قد أمر الله تعالىٰ بالعدل والإحسان جميعاً.

والعدل: سبب النجاة فقط، وهو يجري من التجارة مجرىٰ رأس المال.

والإحسان: سبب الفوز، ونيل السعادة، وهو يجري من التجارة مجرىٰ الربح.

ولا يُعَدُّ من العقلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله، فكذا في معاملات الآخرة.

فلا ينبغي أن يقتصر علىٰ العدل واجتناب الظلم، ويدعَ أبواب الإحسان. وقد قال تعالىٰ:

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧](١).

الآمر بالمعروف

قال أبو حامد:

ينبغي علىٰ الآمر بالمعروف أن يعظ ويخوِّفَ بالله

(١) «المهذب من الإحياء» (١/ ٣٤٨).

تعالىٰ.. وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب، بل ينظر إليه نظر المترحم عليه..

وهاهنا آفة عظيمة، ينبغي أن يتوقاها فإنها مهلكة، وهي أن يرىٰ العالم عزَّ نفسه بالعلم، وذلَّ غيره بالجهل.

فربما يقصد بالأمر بالمعروف إظهار التميُّز بشرف العلم، وإذلال صاحبه بالنسبة إلىٰ خسة الجهل.

فإن كان الباعث هذا، فهذا المنكر ـ في نفسه ـ أقبح من المنكر الذي يعترض عليه.

ومثال هذا العالم، مثال من يخلص غيره من النار بإحراق نفسه، وهو غاية في الجهل[1].

الصدق القبيح

قال أبو حامد:

قيل لبعض الحكماء: ما الصدق القبيح؟

قال: ثناء المرء علىٰ نفسه.

---

(١) المرجع قبله (١/ ٤٧٢ ـ ٤٧٣).

فإياك أن تتعوّد ذلك، واعلم أن ذلك ينقص من قدرك عند الناس، ويوجب مقتك عند الله تعالىٰ.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم][1].

كلمة حق أريد بها باطل

قال أبو حامد:

إياك أن تقول: إن الله كريم رحيم، يغفر الذنوب للعصاة.

فإن هذه كلمة حق أريد بها باطل، وصاحبها ملقب بالحماقة، بتلقيب رسول الله ﷺ حيث قال: (الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنىٰ علىٰ الله الأماني)[2].

واعلم أن قولك هذا يضاهي قول من يريد أن يصير فقيهاً في علوم الدين من غير أن يدرس علماً

---

(١) «بداية المجتهد» (ص١٠٦).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠) بلفظ: (والعاجز من أتبع نفسه هواها). والكيس: هو العاقل، ومعنىٰ دان نفسه: حاسبها.

واشتغل بالبطالة وقال: إن الله كريم رحيم قادر علىٰ أن يفيض علىٰ قلبي من العلوم، ما أفاضه علىٰ قلوب أوليائه من غير جهد وتكرار وتعلُّم.

وهو كقول من يريد مالاً، فترك الحراثة والتجارة والكسب وتعطل، وقال: إن الله كريم، وله خزائن السماوات والأرض..

فأنت إذا سمعت كلام هذين الرجلين استحمقتهما، وسخرت منهما، وإن كان ما وصفاه من كرم الله تعالىٰ وقدرته صدقاً وحقاً.

فكذلك يضحك عليك أرباب البصائر في الدين، إذا طلبت المغفرة بغير سعي لها، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم][١].

الزهد

قال أبو حامد:

الزهد: عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس.

---

(١) «بداية الهداية» (ص١١٤ ـ ١١٦).

أما ترك المحظورات فلا يسمىٰ زهداً.

وأن تكون هذه المباحات مقدوراً عليها، فإن ترك ما لا يقدر عليه فلا يسمىٰ زاهداً.

ولذلك لما قيل لابن المبارك: يا زاهد، قال: الزاهد عمر بن عبد العزيز، إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها، أما أنا ففيم زهدتُ؟!

واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله علىٰ سبيل السخاء والفتوة.. فذلك من محاسن العادات.. وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلىٰ نفاسة الآخرة.. وترك التزيُّن والتعجُّل بزينة الدنيا طمعاً في زينة الجنة.. وخوفاً أن يقال لك: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠][١].

من كنوز البر

قال أبو حامد:

إن كتمان المرض، وإخفاء الفقر، وأنواع البلاء، من كنوز البر، وهو من أعلىٰ المقامات، لأن

(١) «المهذب من الإحياء» (٢/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩).

الرضا بحكم الله، والصبر علىٰ بلائه، معاملة بين العبد وبين الله ، فكتمانه أسلم عن الآفات.

ومع هذا، فالإظهار لا بأس به إذا صحت فيه النية والمقصد:

كأن يكون غرضه التداوي، فيحتاج إلىٰ ذكره للطبيب، فيذكره في معرض الحكاية، لا في معرض الشكاية.

أو أن يظهر عجزه وافتقاره إلىٰ الله تعالىٰ.

وإنما يصير الإظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهية لفعل الله تعالىٰ والشكوىٰ من الله حرام.

فإن خلا عن قرينة السخط، فلا يوصف بالتحريم، لكن تركه أولىٰ(١).

أوقاتك عمرك

قال أبو حامد:

أوقاتك عمرك، وعمرك رأس مالك، وعليه

---

(١) المرجع قبله (٢/٣٥٨).

تجارتك، وبه وصولك إلىٰ نعيم الأبد في جوار الله تعالىٰ.

فكل نَفَسٍ من أنفاسك جوهرة لا قيمة لها، إذ لا بدلَ لها، فإذا فات فلا عودَ له.

فلا تكن كالحمقىٰ المغرورين، الذين يفرحون كل يوم بزيادة أموالهم مع نقصان أعمارهم، فأي خير في مال يزيد وعمر ينقص.

ولا تفرح إلا بزيادة علم أو عمل صالح، فإنهما رفيقاك، يصحبانك في القبر حيث يتخلف عنك أهلك ومالك وولدك وأصدقاؤك[1].

عماد الصلاة

قال أبو حامد:

عماد الصلاة الخشوع، وحضور القلب، مع القراءة والذكر بالتفهُّم.

وقال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلىٰ العقوبة أسرع.

---

(١) «بداية الهداية» (ص٦٥).

وقال رسول الله ﷺ: (إن الرجل لينصرف ما كتب له إلا عُشْرُ صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، وسدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها)[(١)(٢)].

استقبال القبلة

قال أبو حامد:

إذا استقبلت بوجهك القبلة.. فارفع قلبك عن النظر إلىٰ الدنيا والخلق، وأرسل همتك إليه، فإنه لا يرد الآبق، ولا يخيب السائل.

فإذا قلت: الله أكبر، فاعلم أنه لا يحتاج إلىٰ خدمتك له، وذكرك إياه، لأن الحاجة من جبلة الفقراء، وذلك سمة الخلق، والغنىٰ من صفات ذاته.

وإنما وظف علىٰ عبيده وظائف، ليقربهم بها إلىٰ عفوّه ورحمته، ويبعدهم من سخطه وعقوبته[(٣)].

---

(١) رواه أبو داود (٧٩٦).

(٢) «بداية الهداية» (ص٨١).

(٣) «رسالة منهاج العارفين» (ص٢٦).

الخوف من الله تعالىٰ

قال أبو حامد:

الخوف سوط الله يسوق به عباده إلىٰ المواظبة علىٰ العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالىٰ.

وفائدته: الحذر، والورع، والتقوىٰ، والذكر، وسائر الأعمال الموصلة إلىٰ الله تعالىٰ.

والخوف إن لم يؤثر في العمل، فوجوده كعدمه.

وإن لم يحمل إلا علىٰ العفة، وهي الكف عن مقتضىٰ الشهوات، فله درجة.

فإذا أثمر الورع فهو أعلا.

وأقصىٰ درجاته: أن يثمر درجة الصديقين، وهذا أقصىٰ ما يحمد منه. وذلك مع بقاء الصحة والعقل.

فإن جاوز هذا إلىٰ الإضرار بالعقل والصحة، فهو مرض يجب علاجه[١].

---

(١) «المهذب من الإحياء» (٢/ ٣١١ ـ ٣١٢).

تعجب!!

قال أبو حامد:

من العجائب: أنا إذا أردنا المال في الدنيا: زرعنا وغرسنا واتجرنا، وركبنا البحار، وخاطرنا.

وإن أردنا طلب رتبة العلم فقهنا، وتعبنا في حفظه وتكراره.

ونجتهد في طلب أرزاقنا، ولا نثق بضمان الله لنا، ولا نجلس في بيوتنا فنقول: اللهم ارزقنا!

ثم إذا طمعت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم، قنعنا بأن نقول بألسنتنا: اللهم اغفر لنا وارحمنا.

والذي إليه رجاؤنا، وبه اعتزازنا ينادينا ويقول:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم].

ثم كل ذلك لا ينبهنا، ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا، فما هذه إلا محنة هائلة، إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح، فنسأل الله أن يتوب علينا[1].

---

(١) «المهذب من الإحياء» (٢/ ٣٢٥).

ستر الذنوب

قال أبو حامد:

اللباس نعمة من الله علىٰ عبده يستر به البشرة، ولباس التقوىٰ ذلك خير، وخير لباسك ما لا يشغل سرك عن الله تعالىٰ.

فإذا لبست ثوبك، فاذكر محبة الله الستر علىٰ عباده، فلا تفضح أحداً من خلقه بعيب تعلمه منه، واشتغل بعيب نفسك فاستره بدوام الالتجاء إلىٰ الله تعالىٰ في تطهيره.

فإن العبد إذا نسي ذنبه، كان ذلك عقوبة له، وازداد به جرأة علىٰ المعاصي، ولو انتبه من رقدة الغفلة لنصب ذنوبه بين عيني قلبه نصباً، ولبكىٰ عليه بجفون سره، واستولىٰ عليه الوجل، فذاب حياء من ربه[1].

مراقبة النفس

قال أبو حامد:

لن تصل أيها الطالب إلىٰ القيام بأوامر الله تعالىٰ

---

(١) «رسالة منهاج العارفين» (ص٢١).

إلا بمراقبة قلبك وجوارحك في لحظاتك وأنفاسك من حين تصبح إلىٰ حين تمسي.

واعلم أن الله تعالىٰ مطلع علىٰ ضميرك، ومشرف علىٰ ظاهرك وباطنك، ومحيط بجميع لحظاتك وخطراتك وخطواتك، وسائر سكناتك وحركاتك.

فتأدّب أيها المسكين ظاهراً وباطناً، بين يدي الله تعالىٰ، بأدب العبد الذليل المذنب في حضرة الملك الجبار القهار.

واجتهد أن لا يرك مولاك حيث نهاك، ولا بفقدك حيث أمرك، ولن تقدر علىٰ ذلك إلا بأن توزع أوقاتك، وترتب أورادك من صباحك إلىٰ مسائك[١].

الفرائض أولاً

قال أبو حامد:

أقبل علىٰ أداء الفرائض، فإن سلم لك فرضك فأنت أنت.

---

(١) «بداية الهداية» (ص٢٨).

واطلب بالنوافل حفظ الفرائض، وكلما ازددت عبادة فازدد شكراً وخوفاً.

قال يحيىٰ بن معاذ: عجبت لطالب فضيلة، تارك فريضة[1].

الكبر عند العلماء

قال أبو حامد:

ما أسرع الكبر إلىٰ العلماء، فلا يلبث العالم أن يتعزز بالعلم، ويستشعر في نفسه جماله، حتىٰ يستعظم نفسه، ويستحقر الناس، وينظر إليهم نظره إلىٰ البهائم، ويستجهلهم..

ويتوقع أن يبدؤوه بالسلام، وأن يقوموا له ويخدموه..

والغالب أنهم يزورونه ولا يزورهم، ويعودونه ولا يعودهم..

ويستخدم من خالطه منهم.. كأنهم عبيده، أو أجراؤه..

---

(١) «رسالة منهاج العارفين» (ص٤٢).

وكأن تعلمه العلم صنيعة منه إليهم، ومعروف لديهم.

هذا فيما يتعلق بالدنيا.

وأما في أمر الآخرة: فتكبُّره عليهم: بأن يرىٰ نفسه عند الله تعالىٰ أعلا وأفضل منهم. فيخاف عليهم أكثر مما يخاف علىٰ نفسه، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم.

وهذا بأن يسمىٰ جاهلاً أولىٰ من أن يسمىٰ عالماً.

فالعلم الحقيقي هو الذي يعرف به الإنسان نفسه وربه، وخطر الخاتمة، وهذا العلم يزيده خوفاً وتواضعاً.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨][1].

الإخوان ثلاثة

قال أبو حامد:

اعلم أن الإخوة ثلاثة:

---

(١) «المهذب من الإحياء» (٢/ ٢٠٤).

أخ لآخرتك، فلا تراعِ فيه إلا الدين.

وأخ لدنياك، فلا تراع فيه إلا الخلق الحسن.

وأخ لتأنس به، فلا تراع فيه إلا السلامة من شره وفتنته وخبثه[1].

مداخل الشيطان إلىٰ القلب

قال أبو حامد:

حماية القلب عن وساوس الشيطان واجبة.. ولا يتوصل إلىٰ دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، فصارت معرفة هذه المداخل واجبة.

ومداخل الشيطان هي صفات العبد، وهي كثيرة..

فمن أبوابه العظيمة: الغضب والشهوة، وإذا غضب الإنسان، لعب به الشيطان، كما يلعب الصبي بالكرة.

ومن أبوابه العظيمة: الحسد والحرص، فإذا كان العبد حريصاً علىٰ كل شيء، أعماه حرصه وأصمَّه.

---

(١) «بداية الهداية» (ص١٤٤).

ومن أبوابه: حب التزيُّن من الأثاث والثياب والدار، فإن الشيطان إذا رأىٰ ذلك غالباً علىٰ قلب الإنسان، باض فيه وفرخ، فلا يزال يدعوه إلىٰ عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها.. ويسخره فيها طول عمره، فيموت وهو في سبيل الشيطان واتباع الهوىٰ.

ومن أبوابه العظيمة: الطمع في الناس، لأنه إذا غلب الطمع علىٰ القلب، لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنُّع والتزيُّن لمن طمع فيه، بأنواع الرياء.. حتىٰ يصبح المطموع فيه كأنه معبوده.

ومن أبوابه العظيمة: العجلة وترك التثبت في الأمور.

ومن أبوابه العظيمة: البخل وخوف الفقر، فإن ذلك هو الذي يمنع الإنفاق، والتصدق، ويدعو إلىٰ الادخار والكنز..

ومن أبوابه العظيمة: التعصب للمذاهب والأهواء، والحقد علىٰ الخصوم، والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار، وذلك مما يهلك العبَّاد والفسَّاق جميعاً. فإن الطعن في الناس، والاشتغال بذكر نقصهم صفة مجبولة في الطبع.

ومن أبوابه: سوء الظن بالمسلمين، فمن يحكم بشرٍّ علىٰ غيره بالظن، بعثه الشيطان علىٰ أن يطوِّل فيه اللسان بالغيبة، فيهلك، أو يقصر في القيام بحقوقه، وينظر إليه بعين الاحتقار، ويرىٰ نفسه خيراً منه، وكل ذلك من المهلكات.

فهذه بعض مداخل الشيطان إلىٰ القلب[1].

الطهارة من أجل العلم

قال أبو حامد:

الوظيفة الأولىٰ للمتعلم: هي تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف، إذ العلم عبادة القلب، وصلاة السر، وقربة الباطن إلىٰ الله تعالىٰ.

وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن، وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق[2].

---

(١) «المهذب من الإحياء» (٢/ ٢٦ _ ٢٧).

(٢) «المهذب من الإحياء» (١/ ٦٤).

اعرف الحق تعرف أهله

قال أبو حامد:

اعلم أن من عرف الحق بالرجال، حار في متاهات الضلال.

فاعرف الحق، تعرف أهله، إن كنت سالكاً طريق الحق.

وإن قنعت بالتقليد والنظر إلىٰ ما اشتهر من درجات الفضل بين الناس، فلا تغفل عن الصحابة، وعلوّ منصبهم. فالإجماع قائم علىٰ تقدمهم، وأنهم لا يدرك في الدين شأوهم، ولا يشق غبارهم، ولم يكن تقدمهم بالكلام.. بل بعلم الآخرة، وما فضل أبو بكر رضي الله عنه بكثرة صيام ولا صلاة.. ولكن بشيء وقر في صدره[1].

الصلاة

قال أبو حامد:

الصلاة صورة صوَّرها الشرع وتعبدَنا بفعلها.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٣).

فروحها: الخشوع، والنية، وحضور القلب.

وهي قربة وتحفة تتقرّب بها إلىٰ حضرة ملك الملوك، وهذه التحفة تعرض علىٰ الله ، ثم ترد عليك يوم العرض الأكبر.

فإليك الخيرة في تحسين صورتها، أو تقبيحها، فإن أحسنت فلنفسك، وإن أسأت فعليها[1].

كيفية النظر إلىٰ الناس

قال أبو حامد:

إن أورع الناس وأتقاهم وأعلمهم، لا ينظر الناسُ كلهم إليه بعين واحدة، بل بعين الرضا بعضهم، وبعين السخط بعضهم. ولذلك قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
ولكن عين السخط تبدي المساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء، وعن تهمة الأشرار.

فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر.

(١) «المهذب من الإحياء» (١/ ١٢٩).

فمهما رأيت إنساناً.. يسيء الظن بالناس، طالباً للعيوب، فاعلم أنه خبيث الباطن وأن خبثه يترشح منه، وإنما رأىٰ غيره من حيث هو.

فإن المؤمن يطلب المعاذير.

والمنافق يطلب العيوب.

والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق[1].

مرض القلب

قال أبو حامد:

إن القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله..

ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفل عنه، وإن عرفه صعب عليه الصبر علىٰ مرارة الدواء، فإن الدواء مخالفة الشهوات، وهو نزع الروح.

فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه، لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء، وقد استولىٰ عليهم المرض.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٦).

فالطبيب المريض قلّما يُلْتَفَتُ إلىٰ علاجه، فلهذا صار الداء عضالاً، والمرض مزمناً، واندرس هذا العلم، وأُنكِر طبُّ القلوب وأنكر مرضها[1].

العمل حسب الأولويات

قال أبو حامد:

الترتيب بين الأعمال الخيرة واجب، وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور.

فقد يتعين علىٰ الإنسان فرضان: أحدهما يفوت والآخر لا يفوت. أو فضلان: أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته. فإن لم يحفظ الترتيب كان مغروراً. ونظائر ذلك أكثر من أن تحصىٰ.

فإن المعصية ظاهرة.

والطاعة ظاهرة.

وإنما الغامض: تقديم بعض الطاعات علىٰ بعض:

كتقديم الفرائض علىٰ النوافل.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٦٣).

وتقديم فروض الأعيان، علىٰ فروض الكفاية.

وتقديم فرض كفاية لا قائم به، علىٰ ما قام به غيره.

وتقديم الأهم من فروض الأعيان، علىٰ ما دونه.

وتقديم ما يفوت علىٰ ما لا يفوت.

مثال ذلك: من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج، فربما يحج، وهو مغرور، بل ينبغي أن يقدم حقهما علىٰ الحج.

وهذا من تقديم فرض أهم علىٰ فرض هو دونه[1].

احذر الشكوىٰ

قال أبو حامد:

كل عبد سئل عن حاله، فهو بين أن يشكر، أو يشكو، أو يسكت.

---

(١) «المهذب من الإحياء» (٢/ ٢٤٠).

فالشكر طاعة.

والشكوىٰ معصية قبيحة من أهل الدين، وكيف لا تقبح الشكوىٰ من ملك الملوك وبيده كل شيء.

فالأحرىٰ بالعبد إن لم يحسن الصبر علىٰ البلاء، وأفضىٰ به الضعف إلىٰ الشكوىٰ أن تكون شكواه إلىٰ الله تعالىٰ، فهو القادر علىٰ إزالة البلاء.

وذلّ العبد لمولاه عزّ، والشكوىٰ إلىٰ غيره ذلّ[1].

الطاعات والمناهي

قال أبو حامد:

اعلم أن الدين شطران:

أحدهما: ترك المناهي.

والآخر: فعل الطاعات.

وترك المناهي هو الأشد، فإن الطاعات يقدر عليها كل أحد، وترك الشهوات لا يقدر عليه إلا الصديقون.

---

(١) «المهذب من الإحياء» (٢/ ٢٨٨).

ولذلك قال رسول الله ﷺ: (والمهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه)[1].

واعلم أنك إنما تعصي الله بجوارحك، وهي نعمة من الله عليك، وأمانة لديك، فاستعانتك بنعمة الله علىٰ معصيته غاية الكفران[2].

التوسط في أمر الدنيا

قال أبو حامد:

ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه: هو أن لا تترك الدنيا بالكلية، ولا تقمع الشهوات بالكلية:

أما الدنيا: فيأخذ منها قدر الزاد.

وأما الشهوات: فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل، ولا يتبع كل شهوة، ولا يترك كل شهوة، بل يتبع العدل.

ولا يترك كل شيء من الدنيا، ولا يطلب كل شيء من الدنيا. بل يعلم مقصود كل ما خلق

---

(١) رواه البخاري (١٠).

(٢) «بداية الهداية» (ص٩٧).

من الدنيا، ويحفظه علىٰ حدّ مقصوده.

- فيأخذ من القوت ما يقوِّي به البدن علىٰ العبادة.

- ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص، والحر والبرد.

- ومن الكسوة كذلك.

وذلك هو العدل والتوسط بين الطرفين، وهو أحب الأمور إلىٰ الله تعالىٰ[١].

أوامر الله

قال أبو حامد:

اعلم أن أوامر الله تعالىٰ فرائض ونوافل:

فالفرض رأس المال، وهو أصل التجارة، وبه تحصل النجاة.

والنفل هو الربح، وبه الفوز بالدرجات.

قال ﷺ: (يقول الله تبارك وتعالىٰ: ما تقرّب إليّ

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٣٠).

المتقرّبون بمثل أداء ما افترضت عليهم، ولا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها ورجله الذي يمشي بها)[1][2].

الزكاة

قال أبو حامد:

عن كل جزء من أجزائك زكاة واجبة لله.

فزكاة القلب: التفكر في عظمته ـ تعالىٰ ـ وحكمته، وقدرته، ونعمته، ورحمته.

وزكاة العين: النظر بالعبرة، والغضّ عن الشهوة.

وزكاة الأذن: الاستماع إلىٰ ما فيه نجاتك.

وزكاة اللسان: النطق بما يقربك إليه.

وزكاة اليد: القبض عن الشر، والبسط إلىٰ الخير.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٢).

(٢) «بداية الهداية» (ص٢٧).

وزكاة الرجل: السعي إلىٰ ما فيه صلاح قلبك، وسلامة دينك[1].

التقوىٰ

قال أبو حامد:

اعلم أن خيرات الدنيا والآخرة قد جمعت تحت خصلة واحدة، هي التقوىٰ.

وتأمل ما في القرآن من ذكرها:

- كم علق بها من خير.
- وكم وعد عليها من ثواب.
- وكم أضاف إليها من سعادة.

ومنازل التقوىٰ ثلاثة: تقوىً عن الشرك، وتقوىً عن البدع، وتقوىً عن المعاصي[2].

عقيدة عوام المسلمين

قال أبو حامد:

من أشد الناس غلواً وإسرافاً طائفة من

(١) «رسالة منهاج العارفين» (ص٣٧).

(٢) «رسالة روضة الطالبين».

المتكلمين، كفَّروا عوام المسلمين، وزعموا: أن من لا يعرف الكلام معرفتنا، ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتنا التي حررناها فهو كافر.

فهؤلاء ضيّقوا رحمة الله الواسعة علىٰ عباده، أولاً.

وجعلوا الجنة وقفاً علىٰ شرذمة يسيرة من المتكلمين، ثانياً.

ثم جهلوا ما تواتر من السُّنّة، حيث ظهر لهم في عصر رسول الله ﷺ، وعصر الصحابة رضي الله عنهم: حكمهم بإسلام طوائف من أجلاف العرب الذين لم يشتغلوا بعلم الدليل، ولو اشتغلوا به لم يفهموه[1].

تقطيب الجبهة

قال أبو حامد:

ليس الورع في الجبهة حتىٰ تقطب.

ولا في الخد حتىٰ يصعَّر[2].

(١) «فيصل الفرقة» (ص٦٥).

(٢) الأصعر: المعرض بوجهه كبراً.

ولا في الظهر حتىٰ ينحني.

ولا في الرقبة حتىٰ تطأتطأ.

ولا في الذيل حتىٰ يضم.

إنما الورع في القلوب.

أما من تلقاه ببشر فليقاك بعبوس، يمنُّ عليك بعلمه، فلا أكثر الله في المسلمين من مثله[1].

الإخلاص

قال أبو حامد:

اعلم أن الإخلاص عند علمائنا؛ إخلاصان:

إخلاص العمل.

وإخلاص طلب الأجر.

فأما إخلاص العمل: فهو إرادة التقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ، وتعظيم أمره وإجابة دعوته.

والباعث عليه: الاعتقاد الصحيح.

---

(١) جاء في الحديث الذي رواه الترمذي قوله ﷺ: (تبسُّمك في وجه أخيك لك صدقة).

وضد هذا الإخلاص: النفاق، وهو التقرُّب إلىٰ من دون الله تعالىٰ.

وأما إخلاص طلب الأجر: فهو إرادة نفع الآخرة بعمل الخير.

وضد هذا الإخلاص: الرياء، وهو إرادة نفع الدنيا بعمل الآخرة.

وأما تأثيرهما، فهو:

أن إخلاص العمل يجعل الفعل قربة.

وإخلاص طلب الأجر يجعله مقبولاً وافر الأجر.

وأما النفاق، فإنه يحبط العمل، ويخرجه عن كونه قربة.

والرياء يوجب ردَّه(١).

موت الذنوب

قال أبو حامد:

طوبىٰ لمن إذا مات ماتت ذنوبه(٢).

---

(١) «روضة الطالبين» (ص٥٤).

(٢) «روضة الطالبين» (٥٢). والمعنىٰ: أن ينتهي مفعول الذنب =

كلمات بليغة

قال أبو حامد:

أشرف أنواع العلم، العلم بالله ، وصفاته وأفعاله، وفيه كمال الإنسان، وفيه كمال سعادته وصلاحه.

* * *

مدار الطاعات وأعمال الجوارح كلّها تصفية القلب، وتزكية إشراق نور المعرفة.

* * *

أشدّ الناس حماقة، أقواهم اعتقاداً في فضل

= بموت صاحبه، فهناك من أعمال الخير وأعمال الشر لا تنقطع بالموت، بل تستمر بعد موت صاحبها، ومثال الأول ما جاء في «صحيح مسلم» (١٦٣١) قال ﷺ: (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له).

ومثال الثاني: ما جاء في الحديث المتفق عليه من قوله ﷺ: (لا تقتل نفس ظلماً، إلا كان علىٰ ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سنَّ القتل) فكل إنسان أنشأ عملاً استمر شرّه بعد موته فسوف يستمر الإثم يسجل عليه ما دام قائماً.

نفسه، وأثبت الناس عقلاً، أشدهم اتهاماً لنفسه.

* * *

مهما رأيت إنساناً سيئ الظن بالله، فاعلم أنه خبيث الباطن، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق.

* * *

النفس إذا لم تُمنع بعض المباحات، طمعت في المحظورات.

* * *

أعظم أنواع علوم المعاملة، الوقوف علىٰ خدع النفس، ومكايد الشيطان، وذلك فرض عين عل كل مسلم، وقد أهمله الخلق، واستقلوا بعلوم تجر إليهم الوسواس، وتسلط عليهم الشيطان.

* * *

السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسه.

* * *

من لم يطلع علىٰ مكايد الشيطان وآفات النفوس، فأكثر عبادته تعب ضائع، تفوِّت عليه الدنيا، ويخسر في الآخرة.

* * *

ظن من يظن أن العلوم العقلية، مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن، ظن صادر عن عمىٰ في عين البصيرة، نعوذ بالله منه.

* * *

ما لم تعمل لم تنل الأجر.

* * *

الهموم بقدر الهمم.

* * *

ليس حسن الخلق مع المرأة كف الأذىٰ عنها، بل احتمال الأذىٰ منها، والحلم عند طيشها وغضبها.

* * *

أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء، وكم من دواء ينتفع به مريض، ويستضر به آخر.

* * *

مثل الإنسان في عمره، مثل رجل كان يبيع الثلج في وقت الصيف، ولم تكن له بضاعة سواه فكان ينادي ويقول: ارحموا من رأس ماله يذوب.

* * *

الإخلاص أن تكون أعمالك كلها لله تعالىٰ، ولا يرتاح قلبك بمحامد الناس، ولا تبالي بمذمتهم.

* * *

اعلم أن الرياء يتولد من تعظيم الخلق.

الفصل الثاني

رسالة «أيّها الولد»

حَدَثَ أنَّ واحداً من تلاميذ الإمام الغزالي، الذين تلقوا عليه العلوم: فكر في نفسه يوماً فقال لها: إني قرأت أنواعاً من العلوم، وينبغي الآن أن أعرف ما ينفعني منها غداً ويؤانسني في قبري. . فكتب إلىٰ الشيخ يسأله النصيحة، وقال: وإن كانت مصنفات الشيخ كـ«الإحياء» وغيره تشتمل علىٰ جواب مسألتي، لكن مقصودي أن يكتب الشيخ حاجتي في ورقات تكون معي مدة حياتي، لأعمل بها إن شاء الله تعالىٰ.

فكتب إليه الشيخ هذه الرسالة:

* * *

بسم الله الرحمٰن الرحيم

اعلم أيها الولد المحبُّ العزيز، أطال الله بقاءك بطاعته، وسلك بك سبيل أحبائه: أن منشور النصيحة يكتب من معدن الرسالة، إن كان بلغك منه [ﷺ] نصيحة، فأي حاجة لك في نصيحتي، وإن لم يبلغك منه، فقلْ لي: ماذا حصَّلتَ في هذه السنين الماضية؟!

من جاوز الأربعين

أيها الولد..!

من علامة إعراض الله تعالىٰ عن العبد اشتغاله بما لا يعنيه.

وإن امرأً ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له، لجدير أن تطول عليه حسرته.

ومن جاوز الأربعين ولم يغلب خيره شره، فليتجهز إلىٰ النار.

وفي هذه النصيحة كفاية لأهل العلم.

العلم حجة علىٰ صاحبه

أيها الولد..!

النصيحة سهلة، والمشكلُ قبولها، لأنها في مذاق متبعي الهوىٰ مرة، إذ المناهي محبوبة في قلوبهم، وعلىٰ الخصوص لمن كان طالب علم مشتغلاً في فضل النفس، فإنه يحسب أن العلم المجردً ستكون نجاته فيه وخلاصه، وأنه مستغن عن العمل.

سبحان الله العظيم!! ألا يعلم هذا: أنه حين حصَّل العلم، إذا لم يعمل به تكون الحجة عليه آكد؟

كما قال رسول الله ﷺ: (أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه)[1].

وروي: أن الجنيد ـ قدس الله روحه ـ رُئِي في المنام بعد موته، فقيل له: ما الخبر يا أبا القاسم؟ قال: طاحت تلك العبارات، وفنيت تلك الإشارات، وما نفعنا إلا ركيعات ركعناها في جوف الليل.

العلم المجرد لا يفيد

أيها الولد..!

لا تكن من الأعمال مفلساً.. وتيقن أن العلم المجرد لا يأخذ باليد.

مثاله: لو كان علىٰ رجل ـ وهو في برية ـ عشرة أسياف هندية، مع أسلحة أخرىٰ، وكان الرجل شجاعاً وأهل حرب، فحمل عليه أسد عظيم، فما ظنك؟ هل تدفع الأسلحة شرَّه عنه بلا استعمالها والضرب بها؟ ومن المعلوم أنها لا تدفع إلا بالتحريك والضرب.

---

(١) رواه في «مجمع الزوائد» (٨٧٢) وضعفه.

فكذلك لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية، وتعلمها ولم يعمل بها، لا تفيده إلا بالعمل.

بالعمل ترفع الدرجات

أيها الولد..!

لو قرأت العلم مائة سنة، وجمعت ألف كتاب، لا تكون مستعداً لرحمة الله تعالىٰ إلا بالعمل:

لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف].

وما تقول في هذا الحديث: (بني الإسلام علىٰ خمس: شهادة أن لا إلـٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم

رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً)[1].

والإيمان: قول باللسان، وتصديق بالجنان[2]، وعمل بالأركان.

ودليل الأعمال أكثر من أن يحصىٰ، وإن كان العبد يبلغ الجنة بفضل الله تعالىٰ وكرمه، لكن بعد أن يستعد بطاعته وعبادته، لأن رحمة الله قريب من المحسنين.

قال الحسن البصري: يقول الله تعالىٰ لعباده يوم القيامة: يا عبادي! ادخلوا الجنة برحمتي، واقتسموها بأعمالكم.

إياكم والأماني

أيها الولد..!

ما لم تعمل، لم تجد الأجر.

حكي أن رجلاً من بني إسرائيل، عبدَ اللهَ تعالىٰ سبعين سنة، فأراد الله أن يجلوه علىٰ الملائكة،

---

(١) متفق عليه.

(٢) الجنان: القلب.

فأرسل إليه ملكاً يخبره: أنه مع تلك العبادة، لا يليق به دخول الجنة، فلما بلَّغه، قال العابد: نحن خلقنا للعبادة، فينبغي لنا أن نعبده. فلما رجع الملك قال الله تعالىٰ: ماذا قال عبدي؟ قال: إلٰهي، أنت أعلم بما قال، فقال الله تعالىٰ: إذا هو لم يعرض عن عبادتنا، فنحن ـ مع الكرم ـ لا نعرض عنه، يا ملائكتي اشهدوا أني قد غفرت له.

قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا.

وقال علي رضي الله عنه: من ظنَّ أنه بدون الجَهدِ يصلُ فهو متمنٍّ، ومن ظنَّ أنه ببذل الجهد يصل، فهو مستغنٍ.

وقال الحسن رحمه الله: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب.

وقال: علامة الحقيقة: تركُ ملاحظةِ العمل، لا تركُ العمل.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الكيِّس[1] من دان

---

(١) هو العاقل.

نفسه[1]، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنَّىٰ علىٰ الله)[2].

النية في العلم

أيها الولد..!

كم من ليلة أحييتها بتكرار العلم، ومطالعة الكتب، وحرَّمت علىٰ نفسك النوم، لا أعلم ما كان الباعث فيه؟

إن كان بنيتك نيل عرض الدنيا، وجذب حطامها، وتحصيل مناصبها، والمباهاة بين الأقران.. فويل لك، ثم ويل لك.

وإن كان قصدك إحياء شريعة محمد ﷺ، وتهذيب أخلاقك، وكسر النفس الأمّارة بالسوء، فطوبىٰ لك، ثم طوبىٰ لك.

فإنك ميت

أيها الولد..!

عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به.

---

(١) دان نفسه: أي حاسبها.

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩).

العمل بغير علم لا يكون

أيها الولد..!

العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون.

واعلم أن علماً لا يبعدك اليوم عن المعاصي، ولا يحملك علىٰ الطاعة، لن يبعدك غداً عن نار جهنم.

وإذا لم تعمل اليوم، ولم تدارك الأيام الماضية، فإنك تقول ـ غداً ـ يوم القيامة: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢] فيقال: يا أحمق! أنت من هناك تجيء.

فكّر في آخرتك

أيها الولد..!

اجعل الهمة في الروح.. والموت في البدن، لأن منزلك القبر.

وأهل المقابر ينتظرونك في كل لحظة متىٰ تصل إليهم، إياك إياك أن تصل إليهم بلا زاد.

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: هذه الأجساد قفص الطيور، أو اصطبل الدواب.

فتفكّر في نفسك، من أيهما أنت؟

إن كنت من الطيور العلوية، فحين تسمع طنين طبل ﴿ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٧] تطير صاعداً إلىٰ أن تقعد في أعالي بروج الجنان.

وإن كنت ـ والعياذ بالله ـ من الدواب، كما قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] فلا تأمن انتقالك من زاوية الدار إلىٰ هاوية النار.

لو كان يصلي من الليل

أيها الولد..!

لو كان العلم المجرد كافياً لك، ولا تحتاج إلىٰ عمل سواه، لكان نداء الله تعالىٰ: (هل من سائل؟ هل من مستغفر؟ هل من تائب؟)[1] ضائعاً بلا فائدة.

روي أن جماعة من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ذكروا عبد الله بن عمر عند رسول الله ﷺ فقال: (نِعْمَ الرجل هو، لو كان يصلي بالليل)[2].

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لرجل من

---

(١) رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

(٢) رواه البخاري (١١٢١)، ومسلم (٢٤٧٩).

أصحابه: (يا فلان!.. لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تدع صاحبه فقيراً يوم القيامة)[1].

أيها الولد..!

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ [الإسراء: ٧٨]: أمر.

﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨﴾ [الذاريات]: شكر.

﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾ [آل عمران]: ذكر.

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا كان أول الليل، ينادي مناد من تحت العرش: ألا ليقم العابدون، فيقومون ويصلون ما شاء الله، ثم ينادي مناد في شطر الليل: ألا ليقم القانتون، فيقومون ويصلون إلىٰ السحر، فإذا كان السحر ينادي مناد: ألا ليقم المستغفرون، فيقومون ويستغفرون، فإذا طلع الفجر ينادي مناد: ألا ليقم الغافلون، فيقومون من فرشهم كالموتىٰ نشروا من قبورهم.

أيها الولد..!

روي في بعض وصايا لقمان الحكيم لابنه أنه

---

(١) «الترغيب والترهيب» (١/ ٤٤٦).

قال: يا بني! لا يكونن الديك أكيس منك، ينادي بالأسحار وأنت نائم.

الطاعة والعبادة

خلاصة العلم: أن تعلم ما هي الطاعة والعبادة.

اعلم: أن الطاعةَ والعبادة متابعةُ الشارع في الأوامر والنواهي، بالقول الفعل. يعني: كل ما تقول وتفعل، وكل ما تترك قوله وفعله، يكون باقتداء الشرع.

كما لو صمت يوم العيد تكون عاصياً، أو صليت في ثوب مغصوب ـ وإن كانت صورة عبادة ـ تأثم.

موافقة الشرع

أيها الولد..!

ينبغي أن يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع، إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة.

وينبغي لك ألا تغتر بشطح الصوفية وطاماتهم، لأن سلوك هذا الطريق[1] يكون بالمجاهدة.. لا بالطامات والترهات.

(١) أي طريق تربية النفس وتزكيتها.

أصول في تربية النفس

أيها الولد..!

اعلم: أنه يجب علىٰ السالك أربعة أمور:

أول الأمر: اعتقاد صحيح، لا يكون فيه بدعة.

والثاني: توبة نصوح، لا يرجع بعدها إلىٰ الزلة.

والثالث: استرضاء الخصوم، حتىٰ لا يبقىٰ لأحد عليك حق.

والرابع: تحصيل علم الشريعة، قدرَ ما تؤدي به أوامر الله تعالىٰ.

ثم من العلوم الآخرة، ما يكون به النجاة.

خلاصة العلم

أيها الولد..!

كان حاتم الأصم من أصحاب شقيق البلخي، رحمهما الله تعالىٰ، فسأله شقيق يوماً فقال: صاحبتني منذ ثلاثين سنة، فما حصلت؟

قال حاتم: حصَّلت ثماني فوائد من العلم، وهي تكفيني منه، وإني لأرجو خلاصي ونجاتي فيها.

قال شقيق: ما هي؟

قال حاتم:

الفائدة الأولىٰ: إني نظرت إلىٰ الخلق، فرأيت لكل منهم محبوباً ومعشوقاً، يحبه ويعشقه، وبعض ذلك المحبوب يصاحبه إلىٰ مرض الموت، وبعضه يصاحبه إلىٰ شفير القبر، ثم يرجع كله، ويتركه فريداً وحيداً، ولا يدخل معه في قبره منهم أحد.

ففكرت وقلت: أفضل محبوب المرء، ما يدخل معه في قبره، ويؤنسه فيه، فما وجدته غير الأعمال الصالحة.

فأخذتها محبوبة لي، لتكون لي سراجاً في قبري، تؤنسني فيه، ولا تتركني فريداً.

الفائدة الثانية: إني رأيت الخلق يقتدون بأهوائهم، ويبادرون إلىٰ مرادات أنفسهم، فتأملت قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات] وتيقنت أن القرآن حق صادق.

فبادرت إلىٰ خلاف نفسي، وتشمرت

بمجاهدتها، وما متعتها بهواها، حتىٰ ارتاضت بطاعة الله تعالىٰ وانقادت.

الفائدة الثالثة: إني رأيت كل واحد من الناس يسعىٰ في جمع حطام الدنيا، ثم يمسكه قابضاً يده عليه، فتأملت في قوله تعالىٰ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

فبذلت محصولي من الدنيا لوجه الله تعالىٰ، ففرقته بين المساكين ليكون ذخراً لي عند الله تعالىٰ.

الفائدة الرابعة: إني رأيت بعض الخلق ظن أن شرفه وعزّه في كثرة الأقوام والعشائر، فاغتر بهم.

وزعم آخرون: أنه في ثروة الأموال، وكثرة الأولاد، فافتخروا بها.

وحسب بعضهم: أن العز والشرف في غصب أموال الناس وظلمهم، وسفك دمائهم.

واعتقدت جماعة: أنه في إتلاف المال وإسرافه وتبذيره.

فتأملت قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فاخترت التقوىٰ، واعتقدت أن

القرآن حق صادق، وظنهم وحسبانهم كلها باطل زائل.

الفائدة الخامسة: إني رأيت الناس يذم بعضهم بعضاً، ويغتاب بعضهم بعضاً، فوجدت أصل ذلك من الحسد في المال والجاه والعلم.

فتأملت قوله تعالىٰ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢] فعلمت أن القسمة كانت من الله تعالىٰ في الأزل، فما حسدتُ أحداً، ورضيت بقسمة الله تعالىٰ.

الفائدة السادسة: إني رأيت الناس يعادي بعضهم بعضاً، لغرض وسبب.

فتأملت في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] فعلمت أنه لا يجوز عداوة أحد غير الشيطان.

الفائدة السابعة: إني رأيت كل أحد يسعىٰ بجد، ويجتهد بمبالغة لطلب القوت والمعاش، بحيث يقع به في شبهة وحرام، ويذل نفسه وينقص قدره.

فتأملت في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ

إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] فعلمت أن رزقي علىٰ الله تعالىٰ، وقد ضمنه، فاشتغلت بعبادته، وقطعت طمعي عمن سواه.

الفائدة الثامنة: إني رأيت كل واحد معتمداً علىٰ شيء مخلوق، بعضهم علىٰ الدينار والدرهم، وبعضهم علىٰ المال والملك، وبعضهم علىٰ الحرفة والصناعة، وبعضهم علىٰ مخلوق مثله.

فتأملت في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق] فتوكلت علىٰ الله فهو حسبي ونعم الوكيل.

فقال شقيق: وفقك الله تعالىٰ..

الشيخ المربي

أيها الولد..!

قد علمت من هذه الحكاية أنك لا تحتاج إلىٰ تكثير العلم.

والآن أبيّن لك ما يجب علىٰ سالك سبيل الحق.

فاعلم:

أنه ينبغي للسالك شيخ مرشد مربٍّ، ليخرج الأخلاق السيئة منه بتربيته، ويجعل مكانها خلقاً حسناً.

ومعنىٰ التربية: يشبه فعل الفلَّاح الذي يقلع الشوك، ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع، ليحسُنَ نباته، ويكمل ريعه.

ولا بدَّ للسالك من شيخ يربيه ويرشده إلىٰ سبيل الله تعالىٰ، لأن الله أرسل للعباد رسولاً للإرشاد إلىٰ سبيله، فإذا ارتحل ﷺ فقد خَلَّفَ الخلفاء في مكانه حتىٰ يرشدوا إلىٰ الله تعالىٰ.

وشرط الشيخ الذي يصلح أن يكون نائباً لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه: أن يكون عالماً.

ولكن ليس كل عالم يصلح للخلافة.

وإني أبيّن لك بعض علاماته علىٰ سبيل الإجمال. حتىٰ لا يدّعي كل أحدٍ أنه مرشد، فنقول:

ـ من يعرض عن حب الدنيا، وحب الجاه.

ـ وكان قد تابع شيخاً بصيراً، تتسلسل متابعته إلىٰ سيد المرسلين ﷺ.

ـ وكان محسناً رياضة نفسه، من قلة الأكل والقول والنوم، وكثرة الصلوات والصدقة والصوم.

ـ وكان بمتابعة الشيخ البصير جاعلاً محاسن الأخلاق له سيرة: كالصبر والصلاة، والشكر، والتوكل، واليقين، والقناعة، وطمأنينة النفس، والحلم، والتواضع، والعلم، والصدق، والحياء، والوفاء، والوقار، والسكون، والتأني.. وأمثالها.

فهو إذاً نور من أنوار النبي ﷺ يصلح للاقتداء به.

ولكن وجود مثله نادر، أعزُّ من الكبريت الأحمر.

ومن ساعدته السعادة، فوجد شيخاً كما ذكرنا، وقَبِلَه الشيخ، فينبغي أن يحترمه ظاهراً وباطناً.

أما احترام الظاهر: فهو أن لا يجادلَه، ولا يشتغلَ بالاحتجاج معه في كل مسألة، وإن علم

خطأه[1]، ولا يلقي بين يديه سجادته إلا وقت أداء الصلاة، فإذا فرغ من الصلاة فإنه يرفعها، ولا يكثر نوافل الصلاة بحضرته. ويعمل ما يأمره به الشيخ من العمل، بقدر وسعه وطاقته.

وأما احترام الباطن: فهو أن كل ما يسمعه منه ويقبله في الظاهر، لا ينكره في الباطن، لا فعلاً، ولا قولاً، لئلا يتسم بالنفاق.

وإن لم يستطع ذلك، فليترك صحبته إلىٰ أن يوافق باطنُه ظاهرَه.

التصوف استقامة

أيها الولد..!

ثم اعلم أن التصوف له خصلتان: الاستقامة، والسكون عن الخلق.

فمن استقام وأحسن خلقه مع الناس، وعاملهم بالحلم فهو صوفي.

---

(١) الذي يمنعه الغزالي هو مجادلة الشيخ ومناقشته والاحتجاج عليه، أما السؤال القاصد إلىٰ العلم فلا مانع منه

والاستقامة: أن يفدي حظَّ نفسه لنفسه.

وحسن الخُلق مع الناس: ألا تحمل الناس علىٰ مراد نفسك، بل تحمل نفسك علىٰ مرادهم ما لم يخالفوا الشرع.

العبودية والإخلاص والتوكل

أيها الولد..!

ثم إنك سألتني عن **العبودية؟**

وهي ثلاثة أشياء:

أحدها: المحافظة علىٰ أمر الشرع.

وثانيها: الرضا بالقضاء والقدر، وقسمة الله تعالىٰ.

وثالثها: ترك رضاء نفسك، في طلب رضاء الله تعالىٰ.

وسألتني عن **التوكل؟**

وهو أن تستحكم اعتقادك بالله تعالىٰ فيما وعد.

يعني: أن تعتقد أن ما قدر لك، سيصل إليك لا محالة، وإن اجتهد كل من في العالم علىٰ صرفه

عنك. وأن ما لم يكتب لك، لن يصل إليك، وإن ساعدك جميع العالم.

وسألتني عن **الإخلاص**؟

وهو أن تكون أعمالك كلها لله تعالىٰ، ولا يرتاح قلبك بمحامد الناس، ولا تبالي بمذمتهم.

واعلم: أن **الرياء** يتولد من تعظيم الخلق.

وعلاجه: أن تراهم مسخرين تحت القدرة، وتحسبهم كالجمادات في عدم قدرة إيصال الراحة والمشقة، حتىٰ تخلص من مراءاتهم.

ومتىٰ تحسبهم ذوي قدرة وإرادة، لن يبعد عنك الرياء.

أربعة ينبغي تركها

أيها الولد..!

إني أنصحك بثمانية أشياء، اقبلها مني لئلا يكون علمك خصماً عليك يوم القيامة.

تعمل منها أربعة، وتدع منها أربعة.

أما اللواتي تدع فهي:

١ ـ **أحدها**: أن لا تناظر أحداً في مسألة ما

استطعت، لأن فيها آفات كثيرة، فإثمها أكبر من نفعها، إذ هي منبع كل خلق ذميم، كالرياء، والحسد، والكبر، والحقد، والعداوة، والمباهاة، وغيرها.

نعم، لو وقع مسألة بينك وبين شخص، أو قوم، وكانت إرادتك فيها أن يَظهر الحق ولا يضيع، جاز البحث، لكن لتلك الإرادة علامتان:

- إحداها: ألَّا تفرق بين أن ينكشف الحق علىٰ لسانك، أو علىٰ لسان غيرك.

- الثانية: أن يكون البحث في الخلاء أحبَّ إليك من أن يكون في الملأ[1].

---

(١) استطرد هنا الإمام الغزالي، فرأيت أن أضع هذا الاستطراد في الحاشية حتىٰ لا ينقطع تسلسل الموضوع.
قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:
«واسمع مني أذكر لك هاهنا فائدة:
اعلم أن السؤال عن المشكلات: هو عرضُ مرضِ القلب إلىٰ الطبيب. والجواب له، هو سعي لإصلاح مرضه.
واعلم أن الجاهلين: هم المرضىٰ قلوبهم، وأن العلماء، هم الأطباء.
والعالم الناقص لا يحسن المعالجة.

= والعالم الكامل، لا يعالج كل مريض، بل يعالج من يرجو فيه قبول المعالجة والصلاح، فإذا كانت العلة مزمنة، أو عقيماً، لا تقبل العلاج، فحذاقة الطبيب فيه أن يقول: هذا لا يقبل العلاج. فلا تشتغل بمداواته، لأن فيه تضييع العمر.

ثم اعلم أن مرض الجهل علىٰ أربعة أنواع: أحدها يقبل العلاج، والباقي لا يقبل.

أما الذي لا يقبل:

أحدها: من كان سؤاله اعتراضه عن حسد وبغض، فهذا كلما أجبته بأحسن الجواب وأفصحه وأوضحه، فلا يزيده ذلك إلا بغضاً وعداوة وحسداً.

فالطريق أن لا تشتغل بجوابه، فقد قيل:

كل العداوة قد ترجىٰ إزالتها
إلا عداوة من عاداك عن حسد

فينبغي أن تعرض عنه، وتتركه مع مرضه، قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٢٩﴾ [النجم].

والثاني: أن تكون علته من الحماقة، وهو أيضاً لا يقبل العلاج. كما قال عيسىٰ عليه السلام: إنني ما عجزت عن إحياء الموتىٰ، وقد عجزت عن معالجة الأحمق.

وذلك ـ الأحمق ـ رجل يشتغل بطلب العلم زمناً قليلاً، =

٢ ـ والثاني مما تدع: هو أن تحذر مِن أن تكون واعظاً ومذكّراً. لأن فيه آفات كثيرة، إلا أن تعمل بما تقول أولاً، ثم تعظ به الناس.

فتفكر فيما قيل لعيسىٰ عليه الصلاة والسلام: يا ابن مريم، عظ نفسك، فإن اتعظتْ فعظ الناس، وإلا فاستحِ من ربك.

= ويتعلم شيئاً قليلاً من علوم العقل والشرع، فيسأل ويعترض ـ من حماقته ـ علىٰ العالم الكبير الذي أمضىٰ عمره في العلوم، العقلي منها والشرعي.

وهذا الأحمق لم يعلم، ويظن أن ما أشكل عليه، هو أيضاً مشكل للعالم الكبير، ـ فإذا لم يعلم هذا القدر يكون سؤاله من الحماقة ـ فينبغي أن لا يشتغل بجوابه.

والثالث: أن يكون مسترشداً، وكل ما لا يفهم من كلام الأكابر، يحمل علىٰ قصور فهمه، وكان سؤاله للاستفادة. لكن لكونه بليداً لا يدرك الحقائق، فلا ينبغي الاشتغال بجوابه أيضاً، كما قال رسول الله ﷺ: (نحن معاشر الأنبياء، أمرنا أن نكلم الناس علىٰ قدر عقولهم).

وأما المرض الذي يقبل العلاج: فهو أن يكون مسترشداً عاقلاً فهماً، ويكون طالباً الطريق المستقيم، ولم يكن سؤاله واعتراضه عن حسد، وتعنت وامتحان، فهذا يقبل العلاج، فيجوز أن تشتغل بجواب سؤاله، بل يجب عليك إجابته».

وإن ابتليت بهذا العمل، فاحترز من خصلتين:

الأولىٰ: عن التكليف في الكلام بالعبارات والإشارات والطامات والأشعار. لأن الله يبغض المتكلفين.

والمتكلف المتجاوز عن الحد، يدل علىٰ خراب الباطن، وغفلة القلب.

ومعنىٰ التذكير:

- أن يذكر العباد نار الآخرة، وتقصير نفسه في خدمة الخالق.

- ويتفكر في عمره الماضي الذي أفناه فيما لا يعنيه.

- ويتفكر فيما بين يديه من العقبات: من عدم الإيمان في الخاتمة. وكيفية حاله في قبض ملك الموت، وهل يقدر علىٰ جواب منكر ونكير؟

- ويهتم بحاله في القيامة ومواقفها، وهل يعبر الصراط سالماً، أم يقع في الهاوية؟

- ويستمر ذكر هذه الأشياء في قلبه، فيزعجه عن قراره.

فغليان هذه النيران، وتوجه هذه المصائب، **يسمىٰ تذكيراً**.

وإعلام الخلق، وإطلاعهم علىٰ هذه الأشياء، وتنبيههم علىٰ تقصيرهم وتفريطهم، وتبصيرهم بعيوب أنفسهم، لتمسَّ حرارة هذه النيران أهل المجلس، وتجزعهم تلك المصائب، ليتداركوا العمر الماضي بقدر الطاقة، ويتحسروا علىٰ الأيام الخالية في غير طاعة الله تعالىٰ.

هذه الجملة علىٰ هذا الطريق، **تسمىٰ وعظاً**.

كما لو رأيت: أن السيل قد هجم علىٰ دار أحد، وكان هو وأهله فيها، فتقول: الحذر، الحذر، فروا من السيل.

وهل يشتهي قلبك في هذه الحالة أن تخبر صاحب الدار خبرك بتكلف العبارات والنكت والإشارات؟!

فلا تشتهي البتة، فكذلك حال الواعظ فينبغي أن يجتنبها.

الخصلة الثانية: أن لا تكون همتك ـ في وعظك ـ أن يظهر الخلق في مجلسك الوجد، ويشقوا الثياب، ليقال: نعم المجلس هذا!

فهو كله ميل للدنيا والرياء، وهو يتولد من الغفلة.

بل ينبغي أن يكون عزمك وهمتك: أن تدعو الناس من الدنيا إلىٰ الآخرة، ومن المعصية إلىٰ الطاعة، ومن الحرص إلىٰ الزهد، ومن البخل إلىٰ السخاء، ومن الغرور إلىٰ التقوىٰ.

وتحبّب إليهم الآخرة، وتبغِّض إليهم الدنيا.

وتعلمهم علم العبادة والزهد.

لأن الغالب علىٰ طباعهم، الزيغ عن نهج الشرع، والسعي فيما لا يرضىٰ الله تعالىٰ به، والاشتغال بالأخلاق الرديَّة.

فألقِ في قلوبهم الرعب، وروِّعهم، وحذرهم عما يستقبلون من المخاوف، لعل صفات باطنهم تتغير، ومعاملة ظاهرهم تتبدل، ويظهروا الحرص، والرغبة في الطاعة، والرجوع عن المعصية.. وهذا طريق الوعظ والنصيحة.

وكل وعظ لا يكون هكذا، فهو وبال علىٰ من قال ومن يسمع. بل قيل: إنه شيطان يذهب بالخلق عن الطريق ويهلكهم..

فيجب عليهم أن يفروا منه، لأن ما يفسده هذا القائل من دينهم، لا يستطيع الشيطان أن يفعل مثله.

ويجب علىٰ من كان له يد وقدرة أن ينزله عن منابر المسلمين، ويمنعه عما باشره، فإنه من جملة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ ـ **والثالث مما تدع**: أن لا تخالط الأمراء والسلاطين، ولا تراهم، لأن رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة.

وإذا ابتليت بها، فدع عنك مدحهم والثناء عليهم، لأن الله تعالىٰ يغضب إذا مدح الفاسق والظالم، ومن دعا بطول بقائهم، فقد أحبّ أن يعصىٰ الله في أرضه.

٤ ـ **والرابع مما تدع**: أن لا تقبل شيئاً من عطاء الأمراء وهداياهم، وإن علمت أنها من الحلال.

لأن الطمع منهم يفسد الدين، لأنه يتولد منه المداهنة، ومراعاة جانبهم، والموافقة علىٰ ظلمهم، وهذا كله فساد في الدين.

وأقل مضرته: أنك إذا قبلت عطاياهم، وانتفعت

من دنياهم، أحببتهم، ومن أحبّ أحداً، فإنه يحب طول عمره وبقاءه بالضرورة، وفي محبة بقاء الظالم إرادة في الظلم علىٰ عباد الله تعالىٰ، وإرادة خراب العالم.

فأي شيء يكون أضرَّ من هذا علىٰ الدين والعاقبة؟!

وإياك إياك أن تُخدعَ باستهواء الشياطين، أو قول بعض الناس لك: بأن الأفضل والأولىٰ: أن تأخذ منهم الدينار والدرهم، وتفرقها بين الفقراء والمساكين، فإنهم ينفقون في الفسق والمعصية، وإنفاقك علىٰ ضعفاء الناس خير من إنفاقهم.

فإن اللعين ـ إبليس ـ قد قطع أعناق كثير من الناس بهذه الوسوسة.

أربعة ينبغي فعلها

وأما الأربعة التي ينبغي لك أن تفعلها، فهي:

١ ـ **الأول**: أن تجعل معاملتك مع الله تعالىٰ، بحيث لو تعامل بها معك عبدك رضيت بها منه، ولم يضق خاطرك عليه، ولم تغضب. والذي لا ترضىٰ به لنفسك من عبدك المجازي، فلا ترضىٰ به أيضاً لله تعالىٰ، وهو سيدك الحقيقي.

٢ ـ **والثاني**: كلما عملته بالناس، اجعله كما ترضىٰ لنفسك منهم. لأنه لا يكمل إيمان عبد حتىٰ يحب لسائر الناس ما يحب لنفسه.

٣ ـ **والثالث**: إذا قرأت العلم أو طالعته، فينبغي أن يكون علمك علماً يُصلح قلبك ويزكي نفسك.

كما لو علمت أن عمرك ما يبقىٰ غير أسبوع.

فبالضرورة لا تشتغلُ فيها بعلم الفقه والخلاف والأصول والكلام وأمثالها، لأنك تعلم أن هذه العلوم لا تغنيك، بل تشتغل بمراقبة القلب، ومعرفة صفات النفس، والإعراض عن علائق الدنيا، وتزكّي نفسك عن الأخلاق الذميمة، وتشتغل بمحبة الله تعالىٰ وعبادته، والاتصاف بالأوصاف الحسنة. إذ لا يمر علىٰ عبد يوم وليلة إلا ويمكن أن يكون موته فيه.

أيها الولد..! اسمع مني كلاماً آخر، وتفكّر فيه حتىٰ تجد فيه خلاصاً:

لو أنك أخبرت أن السلطان بعد أسبوع يجيئك زائراً.

اعلم أنك في تلك المدة لا تشتغل إلا بإصلاح

ما علمتَ أن نظر السلطان سيقع عليه: من الثياب والبدن والدار والفرش وغيرها.

والآن تفكّر إلىٰ ما أشرتُ به فإنك فهم، والكلام الفرد يكفي الكيِّسَ، قال رسول الله ﷺ: (إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم ولا إلىٰ أعمالكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم ونياتكم)[1].

واعلم أن علم أحوال القلب فرض عين، وغيره فرض كفاية، إلا بمقدار ما تؤدىٰ به فرائض الله تعالىٰ.

٤ ـ **والرابع**: ألا تجمع من الدنيا أكثر من كفاية سنة، كما كان رسول الله ﷺ يعدُّ ذلك لبعض حجراته. وقال: (اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً)[2].

* * *

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) بلفظ: (لا ينظر إلىٰ أجسادكم ولا إلىٰ صوركم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم)، وبلفظ: (لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم).

(٢) رواه مسلم (١٠٥٥م).

أيها الولد..!

إني كتبت في هذا الفصل ملتمساتك، فينبغي لك أن تعمل بها، ولا تنساني فيه من أن تذكرني في صالح دعائك.

وأما الدعاء الذي سألت مني، فاطلبه من دعوات الصحاح.

واقرأ هذا الدعاء في أوقاتك، خصوصاً في أعقاب صلواتك:

اللهم إني أسألك من النعمة تمامها، ومن العصمة دوامها، ومن الرحمة شمولها، ومن العافية حصولها، ومن العيش أرغده.

* * *

اللهم كن لنا ولا تكن علينا، اللهم اختم بالسعادة آجالنا، واجعل إلىٰ رحمتك مصيرنا ومآلنا، واصبب سجال عفوك علىٰ ذنوبنا. ومنَّ علينا بإصلاح عيوبنا، واجعل التقوىٰ زادنا، وفي دينك اجتهادنا، وعليك توكلنا واعتمادنا.. وصلّىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثالث

كشف غرور الخلق أجمعين

حقيقة الغرور:

اعلم أن قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان] وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ [الحديد: ١٤] كاف في ذم الغرور.

وقال ﷺ: (الكيس[١] من دان نفسه[٢] وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنىٰ علىٰ الله)[٣].

والغرور: هو سكون النفس إلىٰ ما يوافق الهوىٰ، ويميل إليه الطبع، عن شبهة وخدعة من الشيطان.

---

(١) الكيِّس: العاقل.

(٢) دان نفسه: حاسبها.

(٣) رواه الترمذي (٢٤٥٩).

فمن اعتقد أنه علىٰ خير، إما في العاجل، أو في الآجل، عن شبهة فاسدة فهو مغرور.

وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير، وهم مخطئون فيه.

فأكثر الناس إذن مغرورون، وإن اختلفت أصناف غرورهم، وإن اختلفت درجاتهم، حتىٰ كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض.

والمغرورون فِرَق كثيرة، ولكن يجمعهم أربعة أصناف:

الصنف الأول: العلماء.

الصنف الثاني: العبَّاد.

الصنف الثالث: المتصوفة.

الصنف الرابع: أرباب الأموال.

(١)
الصنف الأول: أهل العلم

والمغترون منهم فِرَق:

فرقة: أحكموا العلوم الشرعية والعقلية، وتعمقوا فيها. وأهملوا تفقد الجوارح، وحفظها عن المعاصي

وإلزامها الطاعات. واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغاً لا يعذب الله مثلهم، بل يقبل في الخلق شفاعتهم، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم لكرامتهم علىٰ الله.

وهم مغرورون: فإنهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علمان: علم معاملة، وعلم المعرفة.

فأما العلم بالمعاملة: كمعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة، فهي علوم لا تراد إلا للعمل، ولولا الحاجة إلىٰ العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة. وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل.

فمثال هذا: كمريض به علة لا يعرفها إلا حذاق الأطباء، فسعىٰ حتىٰ عثر علىٰ طبيب حاذق، فعلمه الدواء وفصل له الأخلاط.. فتعلم ذلك وكتب منه نسخة، ورجع إلىٰ بيته يكررها، ويعلمها المرضىٰ، ولم يشتغل بشربها واستعمالها، أفترىٰ أن ذلك يغني عن مرضه شيئاً؟

وهكذا الفقيه الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها، وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها، وأحكم

علم الأخلاق وما زكىٰ نفسه بها، فهو مغرور، إذ قال تعالىٰ:

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس].

ولم يقل: قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها، وكتبَ ذلك وعلمه الناس.

وأما الذي يدّعي علم «المعرفة» كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه، وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيع أمر الله وحدوده، فغروره أشد.

ومثاله: مثال من أراد خدمة ملك، فعرفه وعرف صفاته وأخلاقه. ولم يتعرف علىٰ ما يحبه وما يغضبه وما يرضيه، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس لكل ما يغضبه، وعاطل عن جميع ما يحبه؛ فهذا مغرور جداً.. ولو ترك جميع ما عرف واكتفىٰ بمعرفته ومعرفة ما يكرهه ويحبه لكان ذلك أقرب إلىٰ نيل المراد. بل تقصيره في التقوىٰ دليل علىٰ أنه لم يعرف إلا الأسامي دون المعاني. إذ لو عرف الله لخشيه واتقاه. ولذلك قال تعالىٰ.

﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: كفىٰ بخشية الله علماً، وكفىٰ بالاغترار بالله جهلاً.

وفرقة أخرىٰ: أحكموا العلم والعمل، فواظبوا علىٰ الطاعات الظاهرة، وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم لمحو الصفات المذمومة منها كالكبر والرياء والحسد.. وطلب الشهوة..

فهؤلاء: زيّنوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم، ونسوا قوله ﷺ: (إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم ولا إلىٰ أموالكم، وإنما ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالهم)[1] فتعهدوا الأعمال، وما تعهدوا القلوب، والقلب هو الأصل، إذ لا ينجو إلا من أتىٰ الله بقلب سليم. ولا يخفىٰ أن ذلك غرور.

وفرقة أخرىٰ: علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك، وإنما يبتلي به العوام، ثم إذا ظهر عليهم الكبر والرياسة وطلب الشرف قالوا: ما هذا كبر

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٤/ ٣٤).

وإنما هو طلب عز الدين وإظهار شرف العلم . .

ونسي المغرور: أن عدوه ـ الذي حذره الله منه ـ هو الشيطان، وأنه يفرح بما يفعله ويسخر به، ونسي ما روي عن الصحابة من التواضع، حتىٰ عوتب عمر رضي الله عنه في بذاذة زيه عند قدومه إلىٰ الشام، فقال: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام، فلا نطلب العزَّ في غيره.

وفرقة أخرىٰ: أحكموا العلم والعمل، وجاهدوا أنفسهم في التبري من الرياء والكبر . . ، ولكنهم بعد مغرورون، إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان ما دق وغمض مدركه، فلم يفطنوا لها وأهملوها.

وإنما مثاله: من أراد تنقية الزرع من الحشيش، ففعل، إلا أنه لم يفتش علىٰ ما لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض، وظن أن الكل قد ظهر.

فكذلك العالم، قد يفعل جميع ذلك، وهو أن يرىٰ أن باعثه الحرص علىٰ إظهار دين الله، ولعلّ باعثه الخفي هو طلب الذكر وانتشار الصيت.

وعساه يصنف ظاناً أنه يجمع العلم لينتفع به،

وإنما يريد به استطارة اسمه بحسن التصنيف، ولعله في تصنيفه لا يخلو من الثناء علىٰ نفسه، ولعله يحكي ما يستحسنه ولا يعزيه إلىٰ قائله، فينقله كالسارق له، أو يغيره أدنىٰ تغيير، كالذي يسرق قميصاً فيتخذه قباء حتىٰ لا يعرف أنه مسروق.

فهذا وأمثاله، من خفايا القلوب، التي لا يفطن له إلا الأكياس، ولا يتنزه عنه إلا الأقوياء، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء.

وأقل الدرجات: أن يعرف الإنسان عيوب نفسه، ويسوؤه ذلك ويكرهه ويحرص علىٰ إصلاحه. فإذا أراد الله بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، ومن سرّته حسنته، وساءته سيئته فهو مرجوّ الحال. فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار.

هذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ولكنهم قصروا في العمل بالعلم.

* * *

ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لم يهمهم، وتركوا المهم. وهم به مغترون، إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم، وإما لاقتصارهم عليه.

فمنهم فرقة: اقتصروا علىٰ علم الفتاوىٰ في المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد. وسموه الفقه وعلم المذاهب، وربما ضيعوا ـ مع ذلك ـ الأعمال الظاهرة، ولم يحرسوا قلوبهم عن المهلكات، وهؤلاء مغرورون من وجهين: من حيث العمل والعلم.

أما العمل: فقد ذكرنا وجه الغرور فيه، ومثلنا له بالمريض الذي تعلم الدواء.. فكذلك المتفقه المسكين، قد يسلط عليه الكبر والحسد وسائر المهلكات.. فترك ذلك واشتغل بعلم السَّلَم والإجارة والظهار والحيض، وهو لا يحتاج إلىٰ شيء من ذلك قط في عمره لنفسه.. فيظن أنه مشغول بفرض دينه، وليس يدري أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية؛ هذا لو كانت نيته صحيحة.

وأما غروره من حيث العلم، فحيث اقتصر علىٰ علم الفتاوىٰ، وظنه أنه الدين، وترك كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وربما طعن في المحدثين أنهم نقلة أخبار، وترك أيضاً علم تهذيب الأخلاق.

وسبب غروره: ما سمع في الشرع من تعظيم

الفقه، ولم يدر أن ذلك الفقه هو الفقه عن الله، ليستشعر القلب الخوف، إذ قال تعالىٰ:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة].

والذي يحصل به الإنذار غير هذا العلم.

ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه علىٰ الخلافيات. ولم يهمه إلا تعلم طريق المجادلة وإفحام الخصوم، فغرور هؤلاء أقبح من غرور من قبلهم.

وفرقة أخرىٰ: اشتغلوا بعلم الكلام، واعتقدوا أنه لا يكون لعبدٍ عمل إلا بإيمان، ولا يصح إيمان إلا بتعلم جدلهم، وهم فرقتان: ضالّة ومحقّة.

والمحقة إنما اغترارها أنها ظنت الجدل أنه أهم الأمور وأفضل القربات، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يبحث، وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن، أوَليس كامل الإيمان؟!

ولم يلتفتوا إلىٰ القرن الأول، وهم خير القرون،

وأنهم لم يشتغلوا بذلك، وأن الرسول ﷺ ما جادلهم إلا بتلاوة القرآن.

وفرقة أخرىٰ: اشتغلوا بالوعظ والتذكير، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء..

وغرور هؤلاء أشد، لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية العجب، ويظنون أنهم ما تبحروا في علم المحبة، إلا وهم محبون لله، وما وقعوا علىٰ خفايا عيوب الناس إلا وهم منزّهون عنها.

فالمسكين، بهذه الظنون يرىٰ أنه من المتوكلين علىٰ الله، وهو من المتكلمين علىٰ العزّ والجاه والمال، ويرىٰ أنه من المخلصين وهو من المرائين. فهو يخوِّف بالله تعالىٰ وهو منه آمن، ويذكِّر بالله تعالىٰ، وهو له ناسٍ، ويحث علىٰ الإخلاص وهو غير مخلص.

وهو يدّعي حب الله، فما الذي تركه من محاب نفسه لأجله، ويدّعي الزهد، فما الذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالىٰ؟

وإنما وقع الغرور لهؤلاء، من حيث إنهم يصادفون في قلوبهم شيئاً ضعيفاً من أصول هذه المعاني، وهو حب الله والخوف منه، ثم قدروا ـ مع ذلك ـ علىٰ وصف المنازل العالية في هذه المعاني، فظنوا أنهم ما قدروا علىٰ وصف ذلك إلا لاتصافهم بها.

ومن التبس عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور.

وفرقة أخرىٰ: عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ، واشتغلوا بالطامات والشطح، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل، طلباً للإغراب.

فهؤلاء شياطين الإنس، ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل.

ومنهم من قنع بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا، ويظن أن حفظه ذلك يكفيه.

وفرقة أخرىٰ: استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث، أعني في سماعه، وجمع الروايات الكثيرة، وطلب الأسانيد الغريبة العالية، فهمّ أحدهم أن يدور

في البلاد، ويرىٰ الشيوخ، ليقول: رأيت فلاناً، ورويت عن فلان.

وغرورهم: أنهم كحملة الأسفار، فإنهم لا يصرفون العناية إلىٰ فهم معاني السنّة، فعلمهم قاصر، وليس معهم إلا النقل، ويظنون أن ذلك يكفيهم.

والذي يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة، وسالك طريق الآخرة ربما يكفيه الحديث الواحد ليعمل به طول عمره.

وفرقة أخرىٰ: اشتغلوا بعلم النحو واللغة وغريب اللغة، واغتروا به، وزعموا أنهم قد غفر لهم، وأنهم من علماء الأمة، إذ قوام الدين بالكتاب والسنّة، وقوامهما بعلم اللغة. فأفنىٰ هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو، وفي صناعة الشعر.

ومثالهم: كمن يفني جميع العمر في تعلم الخط وتصحيح الحروف. ويزعم أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة، فلا بدّ من تعلمها، ولو عقل لعلم: أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ. والباقي زيادة علىٰ الكفاية.

فأما التعمق في اللغة إلىٰ درجات لا تتناهىٰ فهو فضول مستغنىً عنه، ثم لو اقتصر عليه، وأعرض عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها، فهذا أيضاً مغرور.

(٢)

الصنف الثاني: أرباب العبادة والعمل

والمغرورون منهم فِرَق كثيرة:

فمنهم من غروره في الصلاة.

ومنهم من غروره في تلاوة القرآن.

ومنهم في الحج.

ومنهم في الغزو.

ومنهم في الزهد.

ولم يخل إلا الأكياس وقليل ما هم.

فمنهم فرقة: أهملوا الفرائض، واشتغلوا بالفضائل والنوافل، وربما تعمقوا في الفضائل حتىٰ خرجوا إلىٰ السرف، كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء..

ومنهم من غلب عليه الوسوسة في نية الصلاة.

ومنهم من تغلب عليه الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة.

وفرقة أخرىٰ: اغتروا بقراءة القرآن، وربما يختمونه في اليوم والليل مرة، ولسان أحدهم يجري به، وقلبه يتردد في أودية الأماني، فلا يتفكر في معاني القرآن، ولا يتعظ بمواعظه.

فهو مغرور يظن أن المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه.

ومثاله: مثال عبد كتب إليه مالكه ومولاه كتاباً، وأشار به عليه بالأوامر والنواهي. فلم يصرف عنايته إلىٰ فهمه والعمل به، ولكن اقتصر علىٰ حفظه وتكريره. فهو مستمر علىٰ خلاف ما أمره به مولاه.

نعم، تلاوته إنما تراد لحفظه، وحفظه يراد لمعناه، ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه.

وفرقة أخرىٰ: اغتروا بالصوم، وربما صاموا الدهر، وهم لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة وخواطرهم عن الرياء.. ومع ذلك يظنون بأنفسهم الخير.

وفرقة أخرىٰ: اغتروا بالحج، فيخرجون إليه،

من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون، وطلب الزاد الحلال.. ومع ذلك يظنون أنهم علىٰ خير.

وفرقة أخرىٰ: أخذت في طريق الحسبة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ينكر علىٰ الناس ويأمرهم بالخير، وينسىٰ نفسه.

وفرقة أخرىٰ: جاوروا بمكة أو المدينة، واغتروا ولم يراقبوا قلوبهم، ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم، فقلوبهم معلقة ببلادهم، ملتفتة إلىٰ قول من يعرفه: إن فلاناً مجاور..

وفرقة أخرىٰ: زهدت في المال، وقنعت من اللباس والطعام بالدون، ومن المسكن بالمساجد وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد، ومع ذلك هو راغب في الرياسة والجاه.

فقد ترك أهون الأمرين وبَاءَ بأعظم المهلكين. فهذا مغرور، إذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا، وهو لم يفهم معنىٰ الدنيا، ولم يدر أن منتهىٰ لذَّاتها الرياسة..

وفرقة أخرىٰ: حرصت علىٰ النوافل، ولم يعظم اعتدادها بالفرائض، ترىٰ أحدهم يفرح بصلاة

الضحىٰ، وبصلاة الليل، ولا يجد للفريضة لذة، ولا يبادر في أول الوقت، وينسىٰ قوله ﷺ فيما يرويه عن ربّه: (ما تقرّب المتقرّبون إليّ بمثل أداء ما افترضت عليهم)[1].

(٣)
الصنف الثالث: المتصوفة

ففرقة منهم: وهم متصوفة أهل الزمان ـ إلا من عصمه الله ـ اغتروا بالزي والهيئة والمنطق فشاركوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم.. وفي الصلاة، والجلوس علىٰ السجادات مع إطراق الرأس. فلما تشبهوا بهم ظنوا أنهم أيضاً صوفية، ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن.

وفرقة أخرىٰ: ادعت علم المعرفة.. ولا تعرف إلا الطامات.. وهي تنظر إلىٰ الفقهاء والمفسرين وأصناف العلماء بعين الازدراء فضلاً عن العوام.. وتقول عن العباد إنهم أجراء متعبون، وعن العلماء

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٦٠٢).

إنهم بالحديث محجوبون عن الله، وتدّعي لنفسها الوصول..

وهؤلاء عند الله من الفجار المنافقين.

وفرقة أخرىٰ: وقعت في الإباحة، وطووا بساط الشرع، ورفضوا الأحكام، وسوّوا بين الحلال والحرام، فبعضهم يقول: إن الله مستغن عن عملي فلم أتعب نفسي؟! وبعضهم يقول: الأعمال بالجوارح لا وزن لها، وإنما النظر إلىٰ القلوب، وقلوبنا واصلة إلىٰ معرفة الله، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا، وقلوبنا عاكفة في حضرة الربوبية..؟!

وكل ذلك أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها، لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم. ومن غير اقتداء بمن يقتدي به من أهل الدين والعلم.

وفرقة أخرىٰ: جاوزت حدّ هؤلاء، وصار أحدهم يدّعي المقامات من الزهد والتوكل.. من غير وقوف علىٰ شروطها وعلاماتها وآفاتها، فمنهم من يدّعي الوجد.. وبعضهم يدّعي التوكل، فيخوض البوادي من غير زاد، ليصحح دعوىٰ التوكل، وليس يدري أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة،

وقد كانوا أعرف بالتوكل منه، وقد كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون.

وفرقة أخرىٰ: ادعوا حسن الخلق والتواضع، وإنما غرضهم التكبُّر وباعثهم الرياء والسمعة..

وفرقة أخرىٰ: اشتغلوا بتهذيب الأخلاق، وتطهير النفس من عيوبها، وصاروا يتعمقون فيها، فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علماً وحرفة. ومن أضاع عمره في التفتيش عن عيوب النفس، كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج، ولم يسلك طريقه، فذلك لا يغنيه.

وأنواع الغرور في طريق السلوك إلىٰ الله لا تحصىٰ في مجلدات.

(٤)

الصنف الرابع: أرباب الأموال

ففرقة منهم: يحرصون علىٰ بناء المساجد والمدارس.. وما يظهر للناس كافة، ويكتبون أساميهم بالآجر عليها، ليخلد ذكرهم، ويبقىٰ بعد الموت أثرهم، وهم يظنون أنهم استحقوا المغفرة بذلك، وقد اغتروا فيه من وجهين:

أحدهما: أنهم يبنونها من أموال ربما اكتسبوها من الظلم والنهب والرشا والجهات المحظورة، فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها. فالواجب عليهم التوبة، وردها إلىٰ ملاكها.

الثاني: أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص، ولو كلف واحد منهم أن ينفق ديناراً، ولا يكتب اسمه علىٰ الموضع الذي أنفق عليه، لشق عليه ذلك، ولم تسمح به نفسه.

وفرقة منهم: ربما اكتسبت المال من الحلال، وأنفقت علىٰ المساجد، وهي مغرورة أيضاً من وجهين:

أحدهما: الرياء وطلب الثناء، فإنه ربما يكون في جواره فقراء، وصرف المال إليهم أهم وأفضل وأولىٰ، وإنما يخف عليهم الصرف في المساجد ليظهر ذلك بين الناس.

الثاني: أنه يصرف إلىٰ زخرفة المسجد، وهي شاغلة قلوب المصلين، والمقصود من الصلاة الخشوع ووبال ذلك كله يرجع إليه.

وفرقة أخرىٰ: ينفقون الأموال في الصدقات علىٰ الفقراء، ويطلبون المحافل الجامعة، ويكرهون التصدق في السر، وربما يحرصون علىٰ إنفاق المال في الحج مرة بعد أخرىٰ، وربما تركوا جيرانهم جياعاً.

جاء رجل يودع بشر بن الحارث «الحافي» وقال: قد عزمت علىٰ الحج، فتأمرني بشيء؟ فقال له: كم أعددت للنفقة؟ فقال: ألفي درهم، قال بشر: فأي شيء تبتغي بحجك؟ تزهداً أو اشتياقاً إلىٰ البيت، أو ابتغاء مرضاة الله؟ قال: ابتغاء مرضاة الله، قال: فإن أصبت مرضاة الله تعالىٰ وأنت في منزلك، وتنفق ألفي درهم، وتكون علىٰ يقين من مرضاة الله تعالىٰ، أتفعل؟ قال: نعم، قال: اذهب فأعطها عشرة أنفس: مديون يقضي دينه، وفقير يرم شعثه، ومعيل يغني عياله، ومربي يتيم يفرحه، وإن قوي قلبك أن تعطيها واحداً فافعل، فإن إدخالك السرور علىٰ قلب المسلم، وإغاثة اللهفان، وكشف الضر، وإعانة الضعيف، أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام، قم فأخرجها كما أمرناك، وإلّا فقل لنا ما في قلبك؟ فقال: يا أبا نصر، سفري أقوىٰ من قلبي. فتبسّم بشر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأقبل

عليه وقال له: المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات، اقتضت النفس أن تقضي به وطراً، فأظهرت الأعمال الصالحات، وقد آلىٰ الله علىٰ نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين.

وفرقة أخرىٰ: من أرباب الأموال، يمسكونها بحكم البخل، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية، التي لا تحتاج إلىٰ النفقة، كصيام النهار، وقيام الليل، وختم القرآن.

وهم مغرورون، لأن البخل قد استولىٰ علىٰ بواطنهم، فهو يحتاج إلىٰ قمعه بإخراج المال، وقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها.

ولذلك قيل لبشر: إن فلاناً الغني كثير الصوم والصلاة، فقال: المسكين، ترك حاله ودخل في حال غيره، وإنما حال هذا بإطعام الطعام للجياع، والإنفاق علىٰ المساكين، فهذا أفضل من تجويعه نفسه، ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدنيا، ومنعه للفقراء.

وفرقة أخرىٰ: غلبهم البخل، فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط، ثم إنهم يطلبون من الفقراء من يخدمهم، ويتردد عليهم. وكل ذلك

مفسدات للنية محبطات للعمل، وصاحبه مغرور.

(٥)
الغرور بالسماع بغير عمل

وهناك قوم من عوام الخلق، وأرباب الأموال والفقراء، اغتروا بحضور مجالس الذكر، واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم، واتخذوا ذلك عادة، ويظنون أن لهم علىٰ مجرد سماع الوعظ دون العمل، ودون الاتعاظ أجراً.

وهم مغرورون، لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغباً في الخير، فإذا لم يهيج الرغبة فلا خير فيه، والرغبة محمودة لأنها تبعث علىٰ العمل، فإن ضعفت عن الحمل علىٰ العمل فلا خير فيها..

وربما تدخله من الوعظ رقة كرقة النساء فيبكي ولا عزم، وربما يسمع كلاماً مخوفاً فلا يزيد علىٰ أن يصفق بيديه ويقول: يا سلام سلم، أو نعوذ بالله، أو: سبحان الله. ويظن أنه قد أتىٰ بالخير كله وهو مغرور.

وإنما مثاله: مثال الجائع الذي يحضر عند من يصف له الأطعمة اللذيذة ثم ينصرف، وذلك لا يغني عن جوعه شيئاً.

فكل وعظ لم يغير منك صفة.. فذلك الوعظ زيادة حجة عليك. فإذا رأيته وسيلة كنت مغروراً.

(٦)
سبيل التخلص من الغرور

فإن قلت: ما ذكرته من مداخل الغرور، أمر لا يتخلص منه أحد، وهذا يوجب اليأس، إذ لا يقوىٰ أحد علىٰ الحذر من خفايا هذه الآفات.

فأقول: إن الإنسان إذا افترقت همته في شيء أظهر اليأس منه، واستعظم الأمر، واستوعر الطريق.

وإذا صح منه الهوىٰ، اهتدىٰ إلىٰ الحيل، واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول إلىٰ الغرض، حتىٰ إن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في جو السماء، مع بعده منه، استنزله، وإذا أراد أن يستخرج الذهب والفضة من تحت الجبال استخرجه.. وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها، استخرجها بدقيق الهندسة، وهو مستقر علىٰ الأرض. كل ذلك باستنباط الحيل وإعداد الآلات.

كل ذلك لأن همه أمر دنياه، فلو أهمه أمر

آخرته فليس عليه إلا شغل واحد، وهو تقويم قلبه، وليس ذلك بمحال، فلم يعجز عنه السلف الصالحون، ومن اتبعهم بإحسان، فلا يعجز عنه أيضاً من صدقت إرادته وقويت همته[1].

* * *

---

(١) عن كتاب «المهذب من إحياء علوم الدين» (٢/ ٢٢٧ - ٢٣٩)، أعدّه صالح أحمد الشامي، نشرته دار القلم بدمشق.

المحتوى

الموضوع	الصفحة

* الفصل الأول *
مختارات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* الفصل الثاني *
رسالة أيها الولد

من منشوراتنا

مواعظ الصحابة

رضي الله عنهم

بقلم

صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي